
المجمع العلمي العراقي
بغداد
مجلة المجمع العلمي



مجلة المجمع العلمي



الفهـــرس

تجديـــد البلاغـــة

الدكتور احمد مطلوب

رئيس المجمع العلمي

الملخص :

مرت البلاغة العربية بأدوار كثيرة حتى وصلت الى العــصر الحــديث بالمنهج الذي اختطه السكاكي , وظهرت عدة محاولات لتخطيها والاستعاضة بالأسلوبية التي عدها بعض الباحثين الوريث الشرعي لها ، وظهرت بعد ذلك دعوة الى البلاغة الجديدة .

وهذا البحث يتحدث عن المراحل التي مرت بها البلاغة ويرسم الخطوط العامة لتيسيرها .

(١)

كانت البلاغة في دور نشأتها ملاحظات عامة تأتي إيضاحا لفكرة ، أو تعليقا على عبارة ، وتجلت تلك الملاحظات فـــي كتـــب التفـــسير واللغـــة والأدب ، مثـــل (معاني القرآن) للفراء (ــ ٢٠٧هـ) و (مجـــاز القـــرآن) لأبي عبيـــدة (– ٢٠٨هـ) و (البيـــان والتبيـــين) و (الحيـــوان) للجـــاحظ (–٢٥٥هـ) حتى إذا ألف ابن قتيبة (– ٢٧٦هـ) كتاب (تأويل مشكل القرآن) بدأت الفصول تعقد لفنون البلاغة ، ثم جاء بعده ابـــن المعتـــز (– ٢٩٦هـ) وألف كتاب (البديع) بعد أن وضع أُستاذه ثعلب (–٢٩١هـ) كتاب (قواعـــد الشعر) . وهدف ابن المعتز في كتابه إلى جمع فنون البلاغـــة ، وإثبـــات أن البديع لم يكن فنا طارئا في العصر العباسي ، وإنما هو قديم ورد في الـــشعر الجاهلي ، والقرآن الكريم ، وكلام المتقدمين ، وجعله قسمين :

الأول : أطلق عليه اسم البديع ، وهو خمسة فنون : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، وردّ أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي .

الثاني : سماه محاسن الكلام وهي ثلاثة عشر : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما لا يلزم ، وحسن الابتداء .

وكان هذا التقسيم منطلقا للبلاغيين الذين جاءوا بعدَ ابن المعتز ، وكان كتابا (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني (-٤٧١ أو ٤٧٤هـ) خير ما أنتجته عبقرية الجرجاني ، إذ توقفت البلاغة بعده على يد سراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي (-٦٢٦هـ) الذي أفرد القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) للبلاغة التي عرفها بقوله : ((هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب معها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز ، والكناية على وجهها))[١] ، وقسمها إلى قسمين:

الأول: علم المعاني وهو ((تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل به من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)).

الثاني: علم البيان وهو ((معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في مطابقة الكلام لتمام المراد منه))[٢].

---

[١] مفتاح العلوم ص ١٩٦

[٢] مفتاح العلوم ص ٧٧

وألحق بهما قسما ثالثا سماه وجوها ((مخصوصة كثيرا ما يصار إليها بقصد تحسين الكلام)) [٣]، وهو القسم الذي سماه بدر الدين بن مالك (-٦٨٦هـ) علم البديع ، وجعله ثلاثة أقسام : الراجعة إلى الفصاحة اللفظية ، والراجعة إلى المعنوية ، والراجعة إلى المعنوية إما مختصة بالإفهام والتبيين ، وإما مختصة بالتزيين والتحسين [٤].

وساد هذا المنهج الدرس البلاغي بعد ذلك على الرغم من وجود ثلاثة اتجاهات بلاغية ، وهي :

الأول : اتجاه المشرق العربي المتمثل في كتابي (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) و (الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور) لضياء الدين بن الأثير (- ٦٣٧هـ) و (البرهان في إعجاز القرآن) أو (بديع القرآن) و (تحرير التحرير) لابن أبي الاصبع المصري (- ٦٥٤هـ) و (نضرة الاغريض في نصرة القريض) للمظفر الفضل العلوي (- ٦٥٦هـ).

الثاني: اتجاه المغرب العربي المتمثل في (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحازم القرطاجني (- ٦٨٤هـ) ، و (الروض المريع في صناعة البديع) لابن البناء المراكشي (- ٧٢١ هـ) و(المنزع البديع في تجنيس أنواع البديع) لأبي محمد القاسم السجلماسي (ـ نحو ٧٣٠هـ).

---

[٣] مفتاح العلوم ص ٢٠٠

[٤] ينظر المصباح ص٧٥ ، ومناهج بلاغية ص٢٨٠

الثالث : اتجاه البديعيات وهي كثيرة منها بديعيات : علي بن عثمان الاربلي (- ٦٧٠هـ) وصفي الدين الحلي (- ٧٥٠ هـ) وابن جابر الأندلسي (- ٧٨٠هـ) وعز الدين الموصلي (- ٧٨٩هـ) وزين الدين الآثاري (- ٨٢٨هـ) وابن حجة الحموي (- ٨٣٧هـ) وجلال الدين السيوطي (-٩١١هـ) وعائشة الباعونية (- ٩٢٢هـ) وابن معصوم المدني (-١١١٧هـ) وعبد الغني النابلسي (-١١٤٣هـ) .

ولم تسد هذه الاتجاهات التي كانت لها مناهج متميزة في التقسيم والعرض والاستشهاد ، وساد منهج السكاكي الذي تجلى في تلخيصاته وشروحه الكثيرة [٥].

(٢)

هذا ما كان عليه الدرس البلاغي ، حتى إذا أطل العصر الحديث أُريد للبلاغة أن تتجدد ، وكان أول مظهر للتجديد تدريس كتابي (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني، في الأزهر الشريف بتوجيه الإمام محمد عبده (- ١٩٠٥م) الذي أشرف على طبع الكتابين ووجّه بتدريسهما. وظهرت بعد ذلك كتب مدرسية لم تخرج عن الكتب القديمة إلا ماجاء في بعضها من تيسير في العرض والشرح. ولم ينهض أحد للنظر في واقع البلاغة غير أن الشيخ أمين الخولي (- ١٩٦٦م) نهد لذلك منذ عام ١٩٣٠م ، وألقى محاضرات في تجديد البلاغة ، وأثر الفلسفة فيها ، وتأريخها في مصر ، وكتب مادة (بلاغة) في الترجمة العربية لدائرة

---

[٥] تنظر الشروح في (القزويني وشروح التلخيص) و (مناهج بلاغية).

المعارف الاسلامية وأوضح معالم حياتها وتجديدها[٦] .

وكان كتابه (فن القول) توجيها منهجيا شاملا لبحث البلاغة وخلق مدرسة جديدة ، إذ وضع لها ثلاثة أبواب هي :

الأول: المبادئ ، ويُدرس فيه تعريف فن القول ، وغايته ، وصلته بغيره من الدراسات.

الثاني: المقدمات ، ويُدرس فيه مقتبسات من القضايا النفسية التي تُعين كثيرا في فهم الأدب وتذوقه ، والإحساس بما فيه من روعة وجمال.

الثالث: البحوث ، ويُدرس فيه ما يتصل بالكلمة من حيث هي عنصر لغوي ، وما فيها من إيقاع خلّاب له تأثير في التعبير ، كما يُدرس فيه بناء الجملة كالتقديم والتأخير، والحذف ، والذكر ، والإيجاز ، وفي الفقرة وما فيها من فصل ووصل ، وفي صور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز والايماء والتورية .

هذه خطة الخولي في منهج البلاغة ، وهي خطة قابلة للتغيير والتعديل ، يحذف منها أو يضاف إليها ، ليظل الدرس البلاغي ((صدى لحياة أهله ، وسبيلا لتحقيق غاياتهم في الحياة الوجدانية الراقية))[٧] .

وكان كتاب (الأُسلوب) للأستاذ أحمد الشايب (– ١٩٨٦م) ثمرة خبرة طويلة في دراسة البلاغة وتدريسها، ووضع في ضوء ذلك منهجها الجديد الذي حصره في بابين :

---

[٦] ينظر مناهج تجديد ص٢٦٤

[٧] فن القول ص٢٢٣

الأول: الأُسلوب ، ويدرس فيه القواعد الأساسية للتعبير ، وهي الكلمة ، والصورة ، والجملة ، والعبارة ، وعناصر الأُسلوب وأنواعه وصفاته ومقوماته وموسيقاه . وتدخل في هذا القسم البلاغة ، فعلم المعاني يدخل في بحث الجملة ، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل في باب الصورة .

الثاني: الفنون الأدبية كالقصة والمقالة والرسالة والمناظرة .

هذه خطة الشايب في بحث البلاغة ، وقال إنَّ بها حاجة إلى وضع علمي جديد ، وإلى تخليص مما علق بها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم وألغازهم ، فذالك هو الذي أفسدها وحوّلها بحوثا لفظية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء [٨] .

ورأى الشيخ عبد الله العلايلي (- ١٩٩٦م) أن تلغى كل مباحث البيان واصطلاحاته سوى التشبيه والكناية ، أو الحقيقة والمجاز ، ويُدرس علم المعاني في كتاب (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر ، و (الكشاف) للزمخشري [٩] .

وتكلم أدور مرقص على أنواع البديع المقترحة ، وردَّها إلى الموافقة ، والمخالفة ، والترتيب ، والمبالغة ، والاستدراج ، والتلميح ، وحسن التعليل ، والإيهام ، والتدقيق ، والتوليد ، والكلام الجامع ، وأدخل في كل جنس من هذه

---

[٨] ينظر الاسلوب ص٢٨ وما بعدها .

[٩] تنظر مقدمة لدرس لغة العرب ص٤٣ ، وتهذيب المقدمة اللغوية ص٢٨٤ .

الأجناس ما يتصل به من فنون بلاغية [١٠].

وحصر أنيس المقدسي البلاغة في ستة أبواب هي : التعادل ، والتواطىء اللفظي ، والتواطىء المعنوي ، والمغايرة ، والخروج عن المعتاد ، والإيماء[١١].

(٣)

وقفت البلاغة عند رسوم منهجها الذي اختطه السكاكي ، ويُعد أول من قسم البلاغة إلى علمين متميزين هما : علم المعاني ، وعلم البيان ، وألحق بهما المحسنات اللفظية والمعنوية ، والمصطلحان أشار إليهما الزمخشري في (الكشاف) ولكنه لم يدرس بلاغة القرآن في ضوء تقسيم البلاغة إلى علمين لهما مباحثهما التي أرسى السكاكي معالمها ، وحدد مصطلحاتها ، وأوضح تعريفاتها ، وأساليبها . ولا يعني هذا التقسيم أن هذين العلمين منفصلان ، ويرى السكاكي أن علم البيان شعبة من علم المعاني لا تنفصل عنه إلا بزيادة اعتبار ((جرى منه مجرى المركب من المفرد)) ، لذلك آثر تأخيره ، وكان النظر في هذا المنهج يتجلى في أمرين:

---

[١٠] بحث نظرة في قواعد علوم اللغة العربية وآدابها ــ ينظر في مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) المجلد (١٩) ص ٤٨١ ، وينظر رأيه في المقتطف المجلد (١٠٢) ص ٢٧٢ .

[١١] بحث المسوغات العقلية للبلاغة ــ ينظر في مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) المجلد (٣٠) ص٣٥ .

الأول: تقسيمه البلاغة إلى علمين متميزين ووجوه يؤتى بها للتحسين ، وفي هذا التقسيم وضع السكاكي حدودا واضحة لكل علم ، مما أوقف نمو البلاغة وجعلها قواعد راسخة حتى اليوم.

كان الشيخ علي عبد الرازق (- ١٩٦٦م) أولَ من انتبه من المعاصرين إلى ما في منهج السكاكي من تضييق بحوث البلاغة وحصر مسائلها ، لأن السكاكي ((نظر إلى هذا العلم نظرة فلسفية تحدد ما بينه وبين سائر علوم الأدب من النسبة والارتباط ، وتميزه عنها تمييزا تاما، وتحصر أبوابه ومباحثه حصرا عقليا حتى لا يبقى محل للخوف عليه من دعيّ دخيل))[١٢] .

ولم يفصل الشيخ في هذه المسألة ، وكان الشيخ أحمد مصطفى المراغي قد تعرض لهذه القضية ، ولم يَرَ في التقسيم الثلاثي ((وجها صحيحا ، ولا مستندا من رواية ولا دراية))[١٣] ؛ لأن القدماء لم يقسموا البلاغة إلى معان وبيان وبديع ، ولم يجعلوا تمايزا بين مباحث البلاغة ، ورأى أن تكون البلاغة قسمين :

الأول : يبحث في فصاحة النظم ، ويسمى (علم معاني النحو) أو (علم المعاني) على سبيل الاختصار.

الثاني : يبحث في فصاحة اللفظ ، أو عن معنى المعنى ، ويسمى (علم البيان).

---

(١٢) أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتأريخه ص٦٢ .

(١٣) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص١١١ .

وهذا التقسيم تقسيم السكاكي نفسه ، فعلم المعاني يبحث في الخبر والانشاء ، والايجاز والاطناب ، والفصل والوصل ، والقصر ، وعلم البيان يبحث في المجاز بأنواعه ، والتشبيه ، والكناية ، وهذه الفنون مرتبطة بعلم المعاني كما ذكر السكاكي لذلك أخرها ، وهو ما ذكره عبد القاهر الجرجاني وربطها بالنظم قال: ((وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة ، والكناية ، والتمثيل ، وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم ، وعنه يحدث ، وبه يكون)) [١٤].

الثاني : بحث كل قسم من الفنون ، إذ ظهر الاضطراب في كل قسم من أقسام البلاغة ، ومن ذلك أنه قَدَّم بحث أحوال الإسناد على أحوال المسند إليه والمسند مع أن النسبة متأخرة عن الطرفين ، ومن ذلك أنه مزَّق الموضوع الواحد إذ بحث علم المعاني بحسب ركني الجملة ــ المسند إليه والمسند ــ فكان التقديم ــ مثلا ــ في بحث المسند إليه مرة وفي بحث المسند مرةَ أخرى ، ومثل ذلك الحذف ، والتعريف ، والتنكير ، وكان جمع كل مسألة في مبحث واحد أدق ، فيكون ــ مثلا ــ للتقديم والتأخير مبحث واحد ، ومثله بقية الموضوعات .

وكان لاتخاذه الدلالة في بحث علم البيان ، أن أصبح التشبيه خارجا عنه ، ولكنه بحثه في هذا القسم لاعتماد الاستعارة عليه ، قال : ((ثم أن المجاز ــ أعني الاستعارة ــ من حيث إنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم ، بل لابدّ فيها من تقدمة تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه ، فلا بدّ من أن

---

[١٤] دلائل الإعجاز ص٣٩٣ ، وينظر مفتاح العلوم ص٧٧ .

نأخذه أصلا ثالثا ونقدمه))[١٥]. وما كان للسكاكي أن يذهب إلى ذلك سواء اعتمدت الاستعارة عليه أم كانت إدعاء ؛ لأن دلالة التشبيه قد تكون عقلية ؛ لأن عقد العلاقة بين طرفين لا تتم إلا عن طريق العقل ، فضلا عن أن التشبيه من أكثر الفنون دورانا في الكلام .

وكان تقسيم القسم الثالث (علم البديع) غير دقيق لأن أكثر فنونه متداخلة ، وقد تنبه القدماء إلى هذا التداخل[١٦] ، وأن بعضها يدخل في علم المعاني مثل الالتفات ، إذ بحثه السكاكي في علم المعاني ، وذكره في المحسنات المعنوية ، وقال : ((قد سبق ذكره في علم المعاني))[١٧] .

لم يكن عمل السكاكي بعيدا عن الدقة العلمية وواقع الأساليب العربية ، وإن ما قيل آنفا لا يقلل من أهميته ؛ إذ يعد أساسها في الدرس البلاغي ، لما فيه من مصطلحات دقيقة ، وتعريفات جامعة مانعة ، وشواهد أدبية ، ويمكن أن تبنى عليه المناهج البلاغية على اختلاف وجهات النظر ، بعد الرجوع إلى كتب البلاغة الأولى ، والاستفادة مما يستجد في الدراسات المعاصرة مما له صلة عميقة بفن القول ، وما كان نقد منهجه إنكارا لفضله ولكنه كان رأيا من الآراء .

---

[١٥] مفتاح العلوم ص١٥٧ ، وينظر البلاغة عند السكاكي ص١١٥ وما بعدها للوقوف على منهج السكاكي في البلاغة .

[١٦] ينظر شروح التلخيص ج٤ ص٢٨٥ .

[١٧] ينظر مفتاح العلوم ص٩٥، ٢٠٢ .

(٤)

كانت تلك المحاولات جادة في رسم طريق البلاغة الجديد ، بخلاف ما سعى إليه بعضهم من تقويض هذا الفن الذي لا تخلو منه لغة من لغات العالم [١٨]، وكان منهج الشيخ الخولي دقيقا لما امتاز به من جمع أجزاء البلاغة وتصنيفها تصنيفا يجعلها واضحة كما كانت في عهودها الأولى . ولم تثمر تلك المحاولات كما سعى إليه أصحابها ، وهبت من الغرب اتجاهات جعلت كثيرا من الباحثين يعزفون عن البلاغة ، ويأخذون بتلك الاتجاهات ولاسيما ما يُقصي البلاغة من ساحة النقد الأدبي كالاسلوبية والشعرية .

تلقّف الباحثون العرب الاسلوبية ، وعدوها بديلا عن البلاغة كالدكتور عبد السلام المسدي الذي قال : ((أما الأسلوبية والبلاغية كمتصورين فكريين ، فتمثلان شحنتين متنافرتين متضادتين لا يستقيم لهما تواجد آني في تفكير أصولي مُوحَّد ، والسبب في ذلك يُعزى إلى تاريخية الحدث الأسلوبي في العصر الحديث . وإذا تبينا مسلمات الباحثين والمنظرين ، وجدناها تقرر أن الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها المباشر ، معنى ذلك أن الأسلوبية قامت بديلا عن البلاغة ، والمفهوم الأصولي البديل ـــ كما نعلم ـــ أن يتولد عن واقع مُعطى وريث ينفي بموجب حضوره ما كان قد تولد عنه . فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت ، هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضا)) [١٩].

---

[١٨] للوقوف على هذه المسألة ودعاتها ينظر مناهج بلاغية ص٣٦١.

[١٩] الأسلوبية والأسلوب ص٥٢ ، وينظر مدخل إلى علم الأسلوب ص٤٣.

وأشار إلى مقومات هذا الاستبدال ، وإلى أبرز المفارقات بين المنظورين البلاغي والأسلوبي وهي:

١- أن البلاغة علم معياري ، والأسلوبية تنفي عن نفسها كل معيارية.

٢- أن البلاغة ترسل الأحكام التقييمية بخلاف الأسلوبية.

٣- أن البلاغة تسعى إلى غاية تعليمية ، ولا تسعى الاسلوبية إلى ذلك.

٤- أن البلاغة تحكم بأنماط مسبقة ، والأسلوبية تتحدد بمنهج العلوم الوصفية.

٥- أن البلاغة اعتمدت فصل الشكل عن المضمون في الخطاب اللساني ، والأسلوبية ترفض الفصل بين الدال والمدلول .

وكان الدكتور لطفي عبد البديع قد قال إن الأسلوبية الجديدة ((لا تكتفي بتعيين ما هناك من خصوصيات للكلام ، ولا تقتصر على تعميم الأحكام ، بل تبحث عن العلل ، وتقيم من التحليل الذري الذي تعتمده البلاغة مبدأ موحدا جامعا لها ، ثم تجريها على غاية استطيقية عامة تدخل العمل الأدبي كله ، وتجلي روح الانسان فيه . فالصور البيانية وأنواع البديع ليست صيغا بالية يُؤتى بها للتزيين والتحسين ، وإنما هي جوهرية في لغة الشاعر ، لا تتحقق المادة الشعرية إلا بها. واللغة الشعرية من خلق الشاعر وليست من قبيل المعاني الثانوية التي تطرأ على المعاني الأُول)) ، ثم قال : ((إن اللغة في الأسلوبية تؤول إلى الشاعر أولا وأخيرا بحيث تبطل فيها القسمة إلى معانٍ أُول ، ومعانٍ ثوان ، أما في البلاغة فتشبه أن تكون كالماهية لها وجود في حد ذاتها بقطع النظر عن الشاعر)). وهذا هو الفرق الأساسي بين البلاغة والأسلوبية الحديثة ، وقد فقدت البلاغة علة وجودها في العصر الحديث بعد أن((تمت تجارب الفرد وذاته ، وتغيرت قيمُهُ الاستطيقية)) ، ثم قال :

((لم يعد أحد يحتكم إليها في شعر أو نثر)) [٢٠] .

وقال الدكتور صلاح فضل: إنَّ الأسلوبية ((وريث شـرعي للبلاغـة العجوز التي أدركها سنُّ اليأس وحكم عليها تطور الفنـون والآداب الحديثـة بالعقم))[٢١]. وقال إن البلاغة تدهورت تأريخيا وفقدت أهميتها ((ولم تصبح لها أية قيمة باعتبارها مجموعة من التصورات والمفاهيم التقنينية المعيارية ، فلم تعد لها فاعلية القواعد التي كانت تعرض بها وجودها ، فانها قـد ذابـت وانحلت في علم الأسلوب الحديث)) [٢٢]. ولكنه ــ بعد هذا ــ تحـدث عـن التشبيه والمجاز بأنواعه كالمرسل والاستعارة ، وقال : إن ((كثيرا من المواد البلاغية التقليدية ما زال يقدم ثروة خـصبة ينبغـي اسـتغلالها فـي هـذا الصدد)) [٢٣].

وقال الدكتور محمد عبد المطلب : ((وقد أتاح هذا القصور ــ أي قصور البلاغة ــ للأسلوبية الحديثة أن تكون وريثة شرعية للبلاغة القديمة ، ذلك أن الأخيرة وقفت في دراستها عند حدود التعبير ووضع مـسمياته وتـصنيفها ، وتجمدت عند هذه الخطوة ولم تحاول الوصول إلى بحـث العمـل الأدبـي الكامل ، كما لم يتسَنَّ لها بالضرورة دراسة الهيكل البنائي لهذا العمل ، وكان ذلك بمثابة تمهيد لحلول الأسلوبية في مجال الابداع كبـديل يحـاول تجـاوز الدراسة الجزئية القديمة ، وإقامة بناء علمي يبتعد عن الشكلية البلاغية التـي

---

[٢٠] ينظر التركيب اللغوي للأدب ص٨٩-٩١.

[٢١] علم الأسلوب ص٣ .

[٢٢] علم الاسلوب ص١٣٥.

[٢٣] علم الاسلوب ص١٣٥.

أرهقتها مصطلحات البلاغيين بتفريعات كادت تغطي على قيمها الجمالية))[٢٤]. وقال : ((الأسلوبية ــ كعلم جديد نسبيا ــ حاولت تجنب المزالق التي وقعت فيها البلاغة القديمة من حيث إغراقها في الشكلية ، ومن حيث اقتصارها على الدراسة الجزئية بتناول اللفظة المفردة ، ثم الصعود إلى الجملة الواحدة أو ما هو في حكم الجملة الواحدة)) [٢٥]، ومعنى هذا :

١- أن الأسلوبية بديل عن البلاغة ، أو وريثها الشرعي.

٢- أن البلاغة تقتصر على الدراسة الجزئية بخلاف الأسلوبية.

ولكن الباحث أعاد النظر في البلاغة وقال : ((والذي لا جدال فيه أن البلاغة هي (أسلوبية القدماء) لأن المتابعة الصحيحة لمباحثها الكلية والفرعية تؤكد خطتها العلمية التي لم تتوفر لغيرها من العلوم القديمة ، اللهم إلا علم (الأصول) الذي وازاها في علميتها ، وهذه العلمية البلاغية لم تنحصر في المباحث البلاغية الخالصة ، وإنما اتصلت بعلوم أخرى كعلم اللغة ، وعلم النحو والصرف ، بالإضافة إلى اتصالها بالممارسات النقدية القديمة للشعر والنثر، وهو ما أكد انفتاحها على الثقافة العربية القديمة جملة والأدبية خاصة))[٢٦]. وقال إن البلاغة القديمة تصلح ((للأسلبة الحديثة فالعلاقة بينهما وطيدة ، بل إن الأسلوبية ــ كما يقول (هنريش بليث) تتقلص أحيانا حتى لا تعدو أن تكون جزءً من نموذج التواصل البلاغي ، وتنفصل أحيانا

---

[٢٤] البلاغة والأسلوبية ص ١٩١ .

[٢٥] البلاغة والأسلوبية ص ٢٦٨ .

[٢٦] البلاغة العربية ــ قراءة أخرى ــ ص٤ .

عن هذا النموذج وتتسع حتى لتكاد تمثل البلاغة كلها)) [٢٧]. وقـــال : ((إن معظم الجهد البلاغي القديم جهد معاصر بكل المقاييس ، وإن اتهام الـــسكاكي ومدرسته بتعقيد البلاغة إتهام باطل ، فلم يصنع الرجل شيئا سوى أنه حـــول البلاغة إلى علم دقيق ، فهل العشوائية تمتدح والنظام يُعاب؟ وهل الاعتباطية في البحث تُعَدُّ أصلا ، والتنظيم المبرر يـــصير تعقيـــدا وجمـــودا ؟)) [٢٨]. وقـــال: ((أما الجزئية التي لصقت بالبلاغيين ، فان الدارس ــ أي دارس ــ في ممارسته العملية لمفهوم التنظيرية يلجأ بالضرورة إلى اختبار مفاهيمه من خلال اجتزاء الشاهد ، وهذا أمر مسلم به على مـــستوى الخطـــاب البلاغـــي القديـــم ، والخطاب البلاغي الجديد . فبرغم كثرة ما ترجم عن الأســـلوبيات والبنيويات لم نصادف منها ما يتعامل مع النصوص الكاملة تحليلا وتفسيرا ، وإنما كان الاجتزاء سمة هذه الدراسات ، فهي ضرورية يحتمها المنهج ، اللهم إلا إذا كان الدارس معنيا بدراسة تطبيقية خالصة ، وحتى في هذه الدراســـات لم نجد مؤلفا قد استوعب إنتاجا كاملا ، إذ يتكأ الباحث على نـــص بعينـــه أو مجموعة نصوص لها نوع توافق. وليس هذا دعوة إلى تكريس منهج الاجتزاء أو الانتقاء ، لكن معناه أن الدراسة تفـــرض احتياجاتهـــا المنهجيـــة جزئيـــا وكليا))[٢٩].

---

[٢٧] البلاغة العربية ص٨ ، وينظر كلام هنريش بليث فـــي كتابـــه البلاغـــة والاســـلوبية ص١٣.

[٢٨] البلاغة العربية ص١٤.

[٢٩] البلاغة العربية ص٢٦.

إن إعادة النظر في البلاغة العربية أدى إلى هذا الـرأي الـذي خـالف ما سبق [٣٠]، وإن التمسك بالبلاغـة يُبقي الارتباط باللغـة العربيـة التـي أمدتها بالأساليب المختلفة ، فضلا عن أن اتفاق الباحثين على أسـسها كبيـر بخلاف الأسلوبية التي أصبحت أسلوبيات مما جعل علم الأسلوب ((مثل برج بابل تتعدد فيه اللغات ولا يكاد أحد يفهم من بجواره مما أدى بـالبعض إلـى رفضه . وقد صـار إلى هذا الحـال نتيـجة لأن كـل باحـث في الأسلوب - تقريبا - قد زعم لنفسه حق الشرح الكلي لظاهرة الأسلوب))[٣١].

أما الشعرية فقد كان تودوروف يتحدث في كتابه (الشعرية) عن مظاهر تحليل النص الأدبي ، والتأريخ الأدبي، والشعريـة والجماليـة ، والـشعرية بوصفها مرحلة انتقالية . وكانت الشعرية ــ عنده ــ من مقاييس نقد الأدب ، ولكنه أعاد النظر في حركة النقد الجديد والموروث الشكلاني ناقدا ومـشككا ومقومـا ، وذلك في سيرته النقدية (نقد النقد) واضـعا مـا أسـماه (النقـد الحواري) [٣٢].

وعالج جان كوهين (بنية اللغـة الشعرية) وانطلق من مسائل البلاغـة في دراسته وقال: ((إن الحكم المسبق المعادي للبلاغـة قد تغيـر منذ كتابة

---

[٣٠] يذكر التأرجح في الآراء بقول ابن الرومي :

تقول : هذا مُجاج النحل نمدحه وإن تَعِبْ قلت : ذا قيء الزنابير

[٣١] بلاغة الخطاب ص٢٠١ .

[٣٢] ينظر نقد النقد ص١٤٣ وما بعدها ، وتقديم كتابه الشعرية ص٦ .

هـذه السطور عند اللسانيين ــ على الأقل ــ واعترفت الأسلوبيـة بدينهـا نحو هذا العلم العتيق في الوقت نفسه الذي نحاول فيه تجديده)) [٣٣].

ولا تخرج القضايا التي عالجها كـوهين عـن موضـوعات البلاغـة المعروفة ، وبذلك كانت أساس مفهوم الشعرية عنده ، كما كانت عنـد عبـد القاهر الجرجاني وغيره من البلاغيين العرب الذين أولوا النص عناية فائقـة وأظهروا ما فيه من شعرية تدل على التفرد والابداع [٣٤].

وألف الدكتور علي أحمد سعيد (أدونيس) كتاب (الشعرية العربيـة) وقـد استمد مادته من التراث العربي ، ولاسيما بلاغة عبد القاهر الجرجاني ، كما ألف الدكتور كمال أبو ديب كتاب (في الشعرية) وكان مـصطلح (الفجـوة - مسافة التوتر) منطلقه في بحثه ، قال: ((الشعرية في التصور الذي أحاول أن أنميه هنا وظيفة من وظائف ما سأسميه ــ الفجوة أو مسافة التوتر)) [٣٥].

وكان انتفاعه بالتراث العربي ولاسيما البلاغة واضـحا فـي دراسـته ، ومعنى هذا أن الشعرية لا يمكن تميزها إلا مـن خـلال الـذوق ومباحـث البلاغـة ، هذا ما ذهب إليه تودوروف وقـال إنها تتجدد مـن ((حيث هي علـم الأدب [٣٦])) ، ومـا قالـه كـوهين مـن أنهـا ((علـم موضوعه الشعر)) [٣٧].

---

[٣٣] بنية اللغة الشعرية ص٤٧ .

[٣٤] ينظر في المصطلح النقدي ص١٥١ وما بعدها .

[٣٥] في الشعرية ص٢٠، وتـنظر ٤٣، ٤٥ .

[٣٦] الشعرية ص٨٤ .

[٣٧] بنيه اللغة الشعرية ص٩ .

(٥)

هذا ما كان من أمر البلاغة عند العرب وغيرهم ، فما البلاغة الجديدة التي تسعى إليها الدراسات العربية ؟ وقبل البحث في هذه المسألة لابدّ من تحديد الهدف الذي ترمي اليه البلاغة.

كانت البلاغة عند اليونان مرتبطة بالخطابة ، ولذلك وضع أرسطو طاليس كتاب (الخطابة) وظل هذا هدف الذين تأثروا به حتى ثاروا عليه بعد قرون ، وحاولوا الخروج عن القيود القديمة ، وجربوا المناهج التي ظهرت كالألسنية ، والبنيوية ، والأسلوبية ، والشعرية ، ثم عادوا إلى البلاغة من جديد .

والبلاغة العربية لا تقتصر على إتقان الخطابة والاقناع فحسب ، وإنما لها أهداف حَدَّدها أبو هلال العسكري بأربعة أهداف هي[٣٨]:

١- الهدف الديني وهو الوقوف على إعجاز القرآن الكريم .

٢- الهدف التعليمي ، وهو الوقوف على الأساليب وبلاغتها وروعتها وتعليمها .

٣- الهدف النقدي وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء .

٤- الهدف الخاص باختيار النصوص ، وقد قيل : ((اختيار الرجل قطعة من عقله)) .

هذه هي أهداف البلاغة العربية وينبغي أن تظل مرتبطة بها ، لأنها تمثل روح اللغة العربية ، وبدلا من ذلك أشاع بعض الباحثين العرب ما ذهب إليه الأجانب حين دعوا إلى البلاغة الجديدة . ويقوم البلاغيون الجدد بتحليل

---

[٣٨] ينظر كتاب الصناعتين ص٣ ، مناهج بلاغية ص ٣٢

مستويات التغيير على عدة محاور : التغيير اللفظي ، والتركيبي ، والدلالي ، ويضيفون مستوى رابعا على التغيير هو تغيير منطقي ؛ لأن التغيير الـــدلالي قد ينحصر في تغيير كلمة واحدة ، فالشاعر ((لا يستخدم الشكل البلاغي إلا ليطمس شكل العلامات اللغوية ، ويغير معناها ، ولكن بوسعه بدلا من تبديل المعنى وتغيير دلالة الكلمات ، أي بدلا من تعديل اللغة أن يعمد إلى الواقـــع الموضوعي في ذاته كي ينفصل بوضوح عنه ، ويتمثل شيئا آخر ، ويحصل على نتائج هذا الانفصال)) [٣٩].

وأغرى هذا الاتجاه بعض الباحثين العرب وأخــذوا يدرســـون مـــستويات النص ، وهي:

الأول : المستوى الصوتي ، ويشمل الألفاظ والايقاع .

الثاني : المستوى التركيبي ويشمل بناء الجملة وما يتصل بها .

الثالث : المستوى الدلالي ويشمل الصورة المتمثلة بأنواع المجاز والتشبيه .

وشاع هذا المنهج في الرسائل الجامعية ، وكان ستيفان أولمـــان قـــد قـــال : ((وإذا سلمنا بأن ثمة مستويات ثلاثة للتحليل اللغوي والمعجمي والتركيبـــي فيكون على علم الأسلوب أن يميز بين هذه المستويات الثلاثة نفـــسها)) [٤٠].

وكان جان كوهين قد درس الشعرية من خلال المستوى الصوتي وهو النظم ، ومستوى الدلالة . وذهب اوستن وارين ، ورينيه ويليك إلى أن تحليل العمـــل الأدبي يتألف من عدة مستويات هي : ((١- طبقـــة الـــصوت ، التنغـــيم ، الايقاع ، الوزن .

---

[٣٩] بلاغة الخطاب ص٨٤ ، ٩٣

[٤٠] اتجاهات البحث الأسلوبي ص٦ ، وينظر الألسنية والنقد الأدبي ص٦ ، ٢١

٢- وحدات المعنى التي تحدد البنية اللغوية الشكلية للعمل الأدبي ، أسلوبه ، ونظام التقنية الأسلوبية .

٣- الصورة ، المجاز ، وهما أغزر الوسائل الأسلوبية وأعمقها شاعرية .

٤- العالم النوعي للشعر في رموزه))[٤١]

وهذا هو منهج الأسلوبية عند الدكتور جوزيف ميشال شريم الذي قال إن ((الدراسة الأسلوبية هي نوع من الحوار الدائم بين القارئ والكاتب من خلال نص معين ، ويتم هذا الحوار على مستويات أربعة : النص ، والجملة ، واللفظ ، والصوت))[٤٢].

وعلى هذه المستويات أقام كتابه (دليل الدراسات الأسلوبية) وتحدث عن الصورة المتمثلة في الاستعارة المفردة ، والاستعارة التمثيلية ، والاستعارة التشبيهية ، والكناية ، والسجع ، والوزن والقافية وغيرها مما يتصل بالهندسة اللغوية ، والهندسة الصوتية .

ويرى الدكتور تمام حسان أن إحدى مرحلتي البلاغة كانت ألصق وأوغل في الأسلوبيات ، وأنها تنظر في ((العلاقة الطبيعية في تأليف الألفاظ ، ومحاكاة المعاني، ووزن الشعر وقافيته ، وفي المحسنات البديعية القائمة على التصرف في اللفظ كالسجع والجناس ، وتنظر في العلاقة الصرفية في الكلام على الحقيقة والمجاز ، وفي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وفي الفصاحة

---

[٤١] نظرية الأدب ص٢٠٣ ، وينظر التركيب اللغوي للأدب ص١١٠ .

[٤٢] دليل الدراسات الأسلوبية ص٧ .

ونحو ذلك ، ثم تنظر في العلاقة الذهنية في التشبيهات والاستعارات والكنايات والمحسنات المعنوية))[٤٣].

إن هذا المنهج الذي يدعو إليه الاسلوبيون والبلاغيون الجدد لا يخرج عن تقسيم البلاغة العربية إلى :

١- الفصاحة وما يتصل بالكلمة المفردة مما بحثه ابن سنان الخفاجي في (سر الفصاحة) وضياء الدين بن الأثير في (المثل السائر) ، وهذا هو المستوى الصوتي يضاف إليه الايقاع وبعض فنون البديع.
٢- علم المعاني الذي يبحث في التركيب اللغوي ، وهو المستوى التركيبي.
٣- علم البيان الذي يبحث في الصورة المجازية ، وهو المستوى الدلالي.
٤- علم البديع الذي يبحث في فنون لها صلة بالايقاع ، وتدخل في المستوى الصوتي ، ومالها صلة بعلم المعاني وعلم البيان.

هذه هي البلاغة ، وهي ما لا يُستغنى عنه ، قال بيريلمان : ((لا يوجد أدب بلا بلاغة))[٤٤] ويريد به فن التعبير ، وقال جيزيل فالانسي إن علم البلاغة أصبح نظرية في الأدب ، أي أصبح شعرية [٤٥].

أبعد هذا يريد بعض العرب إلغاء البلاغة التي هي جوهر الكلام ، ويتمسك بما تجاوزه أصحابه من اتجاهات وآراء أصبحت تأريخا ؟

---

[٤٣] الأصول ص ٣٠٣ ، وتنظر ص٣٣٧ ، ٣٩١ .

[٤٤] بلاغة الخطاب ص٨٠ ، وينظر اتجاهات البحث الاسلوبي ص٩ .

[٤٥] مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ص٢٣٢ .

(٦)

تتجدد الدعوة إلى إعادة النظر في البلاغة ووضع منهج يُبقي روحها متألقة ؛ لتكون وسيلة من وسائل النقد بعد أن تزعزع الايمان بها على يد من لم يدرسها أو يتقنها ، مما أدى إلى التنكر لها مع أنها ظلت مرتبطة بالنقد الأدبي حتى حاول بعضهم إزاحتها بحجة أن العصر تخطاها ، وأن الأُسلوبية وريثها الشرعي وما إلى ذلك من أقوال لا ترقى إلى حد اليقين.

لا يُراد بالدعوة إلى التجديد إلغاء البلاغة وإنما تيسيرها بالرجوع إلى أصولها ورفدها بالجديد الذي يثريها ، ويجعلها ملائمة للمستجدات ومحتوية الآداب الحديثة . ويتم ذلك بالنظر في أمرين قبل البدء بالتيسير ورسم المنهج ، وهذان الأمران هما : المنهج والموضوعات ، إذ هما اللذان يحددان العرض وأسلوب البحث .

إن المنهج الذي يسود حتى اليوم هو منهج السكاكي الذي تلقفه الخطيب القزويني وشراح التلخيص ، ويقوم هذا المنهج على تقسيم البلاغة على علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع ، وهو ما عاد إليه البلاغيون الجُدُدُ باسم : المستوى الصوتي ، والمستوى التركيبي ، والمستوى الدلالي، وهذا التقسيم إذا جرد مما أقحم فيه أقرب إلى روح اللغة التي هي ألفاظ وعبارات وصور . والأخذ به لا يخرج عما انتهت إليه البلاغة من تصنيف ، ولا يعد خروجا عن التراث أو قطيعة له ؛ لأنه يصدر عنه وإليه يعود.

وليس من الصعب إدخال موضوعات البلاغة في المستويات الثلاثة ، لأنها التقسيم الثلاثي الذي درجت عليه كتب البلاغة منذ أن وضع السكاكي كتابه (مفتاح العلوم) .

أما الموضوعات ومعالجتها ففي التراث البلاغي ما يُغني بعد أن يُخلى من المباحث التي لا تمت بصلة إلى فن القول ، ولعل (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري ، و(دلائل الاعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني و(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لضياء الدين ابن الأثير، و (تحرير التحبير) لابن أبي الاصبع المصري ، و(الطراز) ليحيى بن حمزة العلوي ، و(منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لابن حازم القرطاجني ــ لعل هذه الكتب وما يماثلها خير مادة ترفد البلاغة الجديدة .

إن تجديد البلاغة أو تيسيرها ليس كتيسير النحو ؛ لأنها علم أو فن لم ينضج ولم يحترق ، أي أنها قابلة لاستيعاب ما يلائم أصولها الكلية ، والبلاغة الميسرة أو الجديدة التي يسعى إليها الدارسون هي التي تواكب الحياة وتعبر عن روح العصر ، وإن نموها في القديم ملمح من ملامح حيويتها وقدرتها على استيعاب ما يستجد ، فضلا عن أنها لم تتوقف عند عصر الاستشهاد الذي تمسك به اللغويون والنحاة ، وإنما تجاوزته وواكبت الأدب ، وفي البديعيات نصوص جديدة استمدها مؤلفوها من العصر الذي عاشوا فيه ، واستخلصوا منها فنونا جديدة لم يقف عندها السابقون . وفي الكتب المنهجية (المدرسية) والدراسات البلاغية الجديدة نصوص من الشعر الحديث ، إذ ذكر الدكتور محمد عبد المطلب في كتابه (البلاغة العربية ــ قراءة أخرى) أمثلة من شعراء معاصرين مثل : فاروق شوشة ، وحسن طلب ، وأحمد عبد المعطي حجازي ، ومحمد ابراهيم أبو سنة ، وعبد العزيز المقالح ، ومحمد مطر عفيفي ، ومحمد سليمان ، وبدر توفيق ، وحلمي سالم ، ورفعة سلام . ومعنى هذا أن البلاغة العربية تلائم نصوص أي أديب لها خيوط تَمتُّ إلى

الأصيل من كلام العرب .

ومن أهم ملامح تجديد البلاغة أو تيسيرها :

أولا: إلغاء التقسيم الثلاثي وجعل البلاغة فنا واحدا ، وبحث موضوعاتها مستقلة على أن يكون ارتباط بين مبحث متقدم وآخر متأخر ، أو أن تدرس على وفق المستويات الثلاثة التي ذكرها البلاغيون الجدد ، وهي مستويات لا تخرج عن روح البلاغة العربية ؛ بل هي عودة إلى منهج السكاكي وشُرّاح التلخيص.

ثانيا: الاهتمام بالمستوى الصوتي والألفاظ ودلالاتها ، وما فيها من جمال وجرس له أثر في التعبير ، وأن يكون البحث في الفصاحة من صميم المستوى الصوتي ، وهو ماعُني به القدماء كابن سنان الخفاجي وضياء الدين بن الأثير.

ثالثا: البحث في الجملة وأجزائها وما يحدث فيها من حذف وذكر ، وتقديم وتأخير ، وارتباط الجمل مما بحثه البلاغيون في موضوع الفصل والوصل.

رابعا: البحث في الفقرة ، والقطعة الأدبية ، والنص الكامل ما أمكن ذلك.

خامسا: البحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، وغيرها من مباحث علم البيان .

سادسا: التقليل من التقسيمات والتفريعات التي يضل الدارس فيها إذ بلغ عدد أقسام الاستعارة في (معجم المصطلحات البلاغية وتطورها) ثمانية وثلاثين نوعا يمكن ردها إلى نوعين: تصريحية ومكنية ، وبلغ عدد أقسام الجناس اثنين وستين نوعا يمكن إرجاعها إلى نوعين : تام

وناقص. ومثل ذلك المحسنات اللفظيـة والمعنويـة إذ يمكـن جمـع المتشابهات في نوع واحد ، والاستغناء عما لا تأثير له في الكلام.

سابعا: توحيد المصطلحات والأخذ بأكثرها دلالة على الفن البلاغي ، وتـرك التسميات المتعددة للفن الواحد ، إذ بلغت مصطلحات البلاغة الأساسية والفرعية أكثر من ألف مصطلح ، ولا يحتاج الباحث والناقد إلى هـذا العدد ؛ لأن كثيرا منها تسميات لأنواع من أقسام الفن.

ثامنـا: تخلية البلاغة مما علق بها من مصطلحات الفلاسفة وأهـل المنطـق والعلوم التي لا تمت إليها بصلة وثيقة مما ذكرته (شروح التلخـيص) مثل : الكم ، والكيف ، والعرض ، والجوهر ، والمؤمن ، والدهري ، والماهية ، والتأسيس ، والموجبة ، والسالبة ، والمسوّرة ، والكلام على الألوان ، والطعوم ، والروائح ، واللذة ، والألم ، وحـرارة الحـروف وبرودتها ورطوبتها ويبوستها ، والتـشريح ، ومـا إلـى ذلـك مـن مصطلحات وتسميات لا يحتاج إليها الدارس والناقد.

تاسعا: تحلية البلاغة بما استجد ويستجد من دراسات بلاغية ونقديـة وأدبيـة وجمالية مما يرفدها بكل جديد لا يهدم أصولها ولا يمحو معالمها.

عاشرا: الاهتمام بعرض الفنون البلاغية باسلوب رفيـع يثيـر المـشاعر ، ويحرك النفوس قبل أن ينفذ إلى العقول فتدركه ؛ لأن البلاغة فن يرتبط بالذوق والاحساس الروحاني.

حادي عشر: اختيار النصوص الرفيعة ، وتلمس البلاغة فيما استجد من فنون أدبية تعبر عن المعاصرة .

ثاني عشر: تحليل النصوص تحليلا أدبيا ، والابتعاد عن المماحكة والتحليل الذي يجعلها طلاسم ، كما فعل بعض القدماء ، وما يفعله بعض المعاصرين.

ثالث عشر: توحيد أسلوب التأليف ، وعدم الانتقال من أسلوب إلى آخر ، كما كان القدماء ينتقلون إلى أساليب الفلاسفة وأهل المنطق عندما يناقشون ، وأساليب الفقهاء حين يعللون ، وأساليب النحاة حين يعرضون لمباحث علم المعاني ويفصلون القول فيها .

هذه بعض الخطوط العامة التي تجعل البلاغة ميسرة ، ولا يعني التيسير تجريدها من الذوق الفني والنزعة العلمية ، وإنما يعني دقة العرض ، وروعة التحليل ، وجمال الأسلوب ، ورونق التمثيل.

وقد ترسم هذه الخطوط منهجا سداه التراث ولحمته الاتجاهات المعاصرة ، ولن يكون هذا المنهج عقبة في تصور مناهج أخرى ؛ لأن البلاغة فن لا يقف عند رسوم ثابتة ، وإن كان لابد لمن يريد التجديد أو التيسير أن يقبس من مباحثها ما ينير السبيل ؛ لأن النقد لا يمكن أن يتخلى عن فنونها ، وعما ينفع في ذلك من الدراسات التي تستجد. وما عودة الأجانب إلى البلاغة إلا لشعورهم بأهميتها ، واعترافهم بما فيها من طاقات تتفجر لتقويم النصوص ، وتحليلها ، وتقييمها ، وعرضها عرضا يلقي عليها الضوء من غير تمحل وتصورات لا تخدم فن القول ، وهي بعد ذلك من أهم وسائل النقد الأصيل ، وإن فصلها عنه افتعال لا تقره خصائص اللغة العربية ، ولن تكون الأسلوبية بديلا شرعيا عنها ، لأن البلاغيين الجدد والأسلوبيين عادوا إليها ، لا لأنها تغني عن غيرها في النقد ، بل لأنها أساس تحليل النصوص ،

وتبيان ما فيها من ألفاظ موحية ، وتركيب رائع ، وتصوير بديع ، وما فيها من أصالة أو تقليد .

المصادر :

١- اتجاهات البحث الأسلوبي ـ اختارها وترجمها الدكتور شكر محمد عياد ـ الرياض ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢- أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني . تحقيق ريتر ـ استانبول ١٩٥٤م.

٣- الأسلوب ـ أحمد الشايب . الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٥٢م.

٤- الأسلوبية والأسلوب ـ الدكتور عبد السلام المسدي ـ الطبعة الثانية . تونس ١٩٨٢م.

٥- الأصول ـ دراسة ايبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي ـ الدكتور تمام حسان ـ الدار البيضاء ـ المغرب ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٦- الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة ـ الدكتور موريس أبو ناضر ـ بيروت ١٩٧٩م.

٧- أمالي علي عبد الرازق في علم البيان وتأريخه ـ الشيخ علي عبد الرازق ـ القاهرة ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م.

٨- بلاغة الخطاب وعلم النص ـ الدكتور صلاح فضل. (عالم المعرفة ١٦٤) - الكويت ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٩- البلاغة العربية ـ قراءة أخرى ـ الدكتور محمد عبد المطلب ـ القاهرة ١٩٩٧م.

١٠- البلاغة عند السكاكي ـ الدكتور أحمد مطلوب ـ بغداد ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
١١- البلاغة والأسلوبية ـ الدكتور محمد عبد المطلب ـ القاهرة ١٩٨٤م.
١٢- البلاغة والأسلوبية ـ هنريش بليث ـ ترجمة الدكتور محمد العمري ـ الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٨٩م.
١٣- بنية اللغة الشعرية ـ جان كوهين ـ ترجمة محمد الولي ومحمد العمري ـ الدار البيضاء ـ المغرب .
١٤- تأريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ـ أحمد مصطفى المراغي ـ القاهرة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
١٥- التركيب اللغوي للأدب ـ بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا ـ الدكتور لطفي عبد البديع ـ القاهرة ١٩٧٠م.
١٦- تهذيب المقدمة اللغوية ـ عبد الله العلايلي ـ بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
١٧- دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني . تحقيق محمود محمد شاكر ـ القاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٨- دليل الدراسات الأسلوبية ـ الدكتور جوزيف ميشال شريم ـ بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٩- شروح التلخيص ـ القاهرة ١٩٣٧م.
٢٠- الشعرية ـ تزفيتان تودوروف ـ ترجمة شكري المنجوت ورجاء بن سلامة ـ الدار البيضاء ـ المغرب ١٩٨٦م.

٢١- الشعرية العربية ــ الدكتور علي أحمد سعيد (ادونيس) ــ بيروت ١٩٨٥م.
٢٢- علم الاسلوب ــ مبادئه وإجراءاته ــ الدكتور صلاح فضل ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٨٥م.
٢٣- فن القول ــ الشيخ أمين الخولي ــ القاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
٢٤- في الشعرية ــ الدكتور كمال أبو ديب ــ بيروت ١٩٨٧م.
٢٥- في المصطلح النقدي ــ الدكتور أحمد مطلوب. بغداد ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٢م.
٢٦- القزويني وشروح التلخيص ــ الدكتور أحمد مطلوب ١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م.
٢٧- كتاب الصناعتين ــ أبو هلال العسكري ــ تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ــ القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
٢٨- مدخل إلى علم الأسلوب ــ الدكتور شكري محمد عياد ــ الرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٢٩- مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ــ تأليف مجموعة من الكتاب ــ ترجمة الدكتور رضوان ظاظا ــ مراجعة الدكتور المنصف الشنوفي (عالم المعرفة ٢٢١) - الكويت ١٣١٧هـ - ١٩٩٧م.
٣٠- المسوغات العقلية للبلاغة ــ أنيس المقدسي ــ بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ــ المجلد (٣٠) سنة ١٩٥٥م.
٣١- المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ــ بدر الدين بن مالك ــ القاهرة ١٣٤١هـ .

٣٢- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ــ الدكتور أحمد مطلوب ــ الطبعة الثانية ــ بيروت ١٩٩٦م.

٣٣- مفتاح العلوم ــ سراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي ــ القاهرة ــ ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.

٣٤- مقدمة لدرس لغة العرب ــ عبد الله العلايلي ــ القاهرة .

٣٥- مناهج بلاغية ــ الدكتور أحمد مطلوب ــ بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٣٦- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ــ الشيخ أمين الخولي ــ القاهرة ١٩٦١م.

٣٧- نظرة في قواعد علوم اللغة العربية وآدابها ــ أدور مرقص ــ بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد (١٩) سنة ١٩٢٩م.

٣٨- نظرية الأدب ــ اوستن وارن ، ورينيه ويليك ــ ترجمة محيي الدين صبحي ومراجعة الدكتور حسام الخطيب ــ دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٣٩- نقد النقد ــ تزفتيان تودوروف ــ ترجمة سامي سويدان ــ الطبعة الثانية ــ بغداد ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

التقنية المتناهية في الصغر
وآفاق المستقبل

الدكتور داخل حسن جريو
عضو المجمع العلمي ــ بغداد

الملخص:

تشهد التقنية المتناهية في الصغر المعروفة عالميا بإسم Nanotechnology إهتماما كبيرا من الجامعات ومؤسسات البحث العلمي والمؤسسات الصناعية لما لها من إنعكاسات مهمة في الكثير من المجالات الحياتية ولاسيما المجالات الطبية والزراعية وتقنيات الحاسوب والمعلومات والإتصالات. تسلط هذه الدراسة الضوء على أبرز تطورات هذه التقنية وإستخداماتها المختلفة.

مقدمة

التقنية المتناهية في الصغر تقنية متداخلة تجمع بعض تخصصات العلوم الصرفة في الفيزياء والكيمياء وعلم المواد وعلوم الحياة ، وجميع التخصصات الهندسية. ففي جانب العلوم الصرفة يُعنى علم التقنية المتناهية في الصغر Nanoscience بدراسة الخواص الفيزيائية والكيميائية والحيوية بمقياس الذرات أو ما يقاربه. وفي الجانب الهندسي تُعنى التقنية المتناهية في الصغر Nanotechnology

بإستخدام الخواص المعدة بمقياس التقنية المتناهية في الصغر لصنع مواد أو منظومات ذات قدرات فريدة ومميزة ، ومعالجة واستعمال المواد والأجهزة الصغيرة التي يمكن صنع ما هو أصغر منها، أي صنعها بحجم الذرات والجزيئات.

يكون حجم مواد التقنية المتناهية في الصغر عادة بين ٠,١ و ١٠٠ نانومتر، يعادل النانومتر واحدا من البليون من المتر. وهذا الحجم هو الحجم الذي تؤدي فيه الكائنات الحية وظائفها الأساسية، وتعطي المواد بهذا الحجم صفات فيزيائية وكيميائية غير اعتيادية ناجمة عن زيادة المساحة السطحية بالمقارنة بالحجم حيث تصغر الجسيمات. إذا كان نانومتر واحد يعادل عرض رأس دبوس تقريبا، فأن متر واحد بهذا المقياس يمكن أن يمتد مسافة ١٠٠٠ كيلومتر، لكن رأس الدبوس هو في الحقيقة بعرض مليون نانومتر. النانومتر بحجم واحد من ٥٠٠٠٠ من حجم شعرة رأس الإنسان. عرض معظم الذرات من ٠,١ إلى ٠,٢ نانومتر. قطر كريات الدم الحمراء مثلا قرابة ٧٠٠٠ نانومتر.

التقنية المتناهية في الصغر موجودة في الطبيعة منذ أن خلق الله الكون وما فيه من كائنات حية، فالمنتجات الطبيعية من نباتات وحيوانات قد خلقت بكفاية عالية وقدرات ممتازة ، فالمعادن والمياه مثلا يمكن تحويلها إلى خلايا حية لتخزين كميات هائلة من المعلومات والبيانات والتعامل معها بإستخدام مصفوفات خلايا عصبية. استفاد الإنسان من خواص المواد غير الاعتيادية بمقياس التقنية المتناهية في الصغر منذ قرون طويلة، جسيمات الذهب الصغيرة على سبيل المثال، يمكن أن تظهر حمراء أو خضراء، وقد استخدمت هذه الخاصية لصبغ زجاج النوافذ منذ أكثر من ألف عام.

تطورات التقنية المتناهية في الصغر

يعود تاريخ التقنية المتناهية في الصغر إلى العام ١٩٥٩ عندما شرح العالم الأمريكي ريجراد فيمان فكرة بناء الأشياء بالحجم الذري والجزيئي وذلك في إحدى محاضراته. إلا أن هذه الفكرة لم تأخذ طريقها في التطبيق حتى عام ١٩٨١، عندما قام الباحثون في شركة (أي. بي. أم) الأمريكية بمدينة زيورخ السويسرية ، ببناء أول مجهر ماسح يتيح رؤية الذرات المنفردة بمسح مسبار صغير فوق سطح بلورة سيلكون.

اكتشف علماء شركة أي. بي. أم في عام ١٩٩٠ كيفية استعمال المجهر الماسح لتحريك ذرات أكسنيون المنفردة حول سطح نيكل في تجربة أكونية بإيعاز عيني للتسويق. طورت تقنيات أخرى للتصوير بالمقياس الذري كان أبرزها مجهر القوة التلقائية وتصوير الرنين المغناطيسي.

كما استطاع باحثون آخرون من هذه الشركة عن طريق برنامجها (إبطاء وتخزين ومعالجة الضوء) من الاقتراب أكثر من حلم استبدال الكهرباء بالضوء في إيصال المعلومات بين أجزاء الدارات. وهو أمر سيؤدي إلى تطورات جذرية في أداء الحاسب الآلي وكل الأنظمة الإلكترونية الأخرى، إذ استطاع الباحثون إبطاء سرعة الضوء إلى واحد على ٣٠٠ من سرعته المعتادة عن طريق تمريره في قنوات من السليكون المصنع بعناية بالغة، بجهاز يسمى موجه موجات الكريستل ـ الفوتوني. تسمح هذه الطريقة للقنوات بتغيير سرعة الضوء عن طريق تمرير تيار كهربائي لموجه الموجات. إن إبطاء سرعة الضوء ليس بالشيء الجديد، إنما الشيء الجديد هنا هو التحكم

في سرعة الضوء على شرائح سليكونية بإستخدام وسائل تصنيعية تعتمد على التقنية المتناهية في الصغر، مما يجعل بالإمكـــان تــصنيع دارات ضوئية في غاية الصغر من الحجم، وعملية في آن واحد لوضعها فـــي الأدوات المنزلية. يتوقع أن يسهم هذا التطور في صناعة أول حاسوب آلي ضوئي إذا ما تم صنع جميع مكوناته بأسعار معتدلة.

اكتشف الكيميائيون في عام ١٩٨٥ كيفية خلق جزيء من ٦٠ ذرة كاربون على شكل كرة قدم، أطلقوا عليه اسم الكرة الكبيـرة. تــم صنع لفة فائقة القوة من ذرات الكاربون في عام ١٩٩١، عرفت باسم انابيب كاربون التقنية المتناهية في الصغر، تمتاز هذه اللفة بأنها أخــف ست مرات وأقوى ١٠٠ مرة من الحديــد. وتــستطيع نقــل الحــرارة والكهرباء أفضل من النحاس ، وبذلك يمكن أن تشكل أساسا قويا لبنــاء دوائر الكترونية جديـــدة في الحواسيب أو في شبكات الانــسان الآلـــي العصبيـــة. استعملت أنابيب التقنيـــة المتناهيـــة في الصغر في صناعة الأليــاف والبلاستــك الــصلــد ورقائـــق الحاســوب ومتحســسات الغازات السامة.

تجرى البحوث حاليا لإقتباس كيفية عمل خلايا الكائنات الحية، (فالمعروف أن جسم الانسان مثلا يتجدد بتجدد خلاياه البالغ عددها أكثر من عشرة ترليونات خلية)، وإستعمالها بتجديد مكونات جهاز الحاسوب لتمكين الحاسوب من تجديد مكوناته بواسطـــة مزج المواد العضوية مع مواد الحاسوب، وبذلك تتصرف مكونـــات الحاسوب الإلكترونية وكأنها خلايا حية.

نجح العلماء بصناعة أجهزة ومعدات بمقياس التقنية المتناهيـــة في الصغر منها على سبيل المثال: الترانزسترات الصغيرة، وصمامات

التقنية المتناهية في الصغر الثنائية، ومتحسسات التقنية المتناهية في الصغر، والمكابس الجزيئية والمحركات الكيميائية ومحارير التقنية المتناهية في الصغر، وحاويات التقنية المتناهية في الصغر وغيرها.

كما نجح الباحثون بإيجاد الوسائل المناسبة بوضع البروتينات والحمض النووي (دي. أن. أي) والفيروسات والبكتريا والأحياء المجهرية الأخرى للعمل لبناء مواد التقنية المتناهية في الصغر. ويتوقع تحقيق نجاحات عظيمة باستخدام التقنية المتناهية في الصغر في العمليات الجراحية والأجهزة الطبية.

كما أستخدمت التقنية المتناهية في الصغر بتغليف المواد الغذائية للحفاظ عليها من التلوث ولاسيما التلوث البكتيري بصورة أفضل، وأستخدمت لتحسين مذاق بعض المواد الغذائية ومحتواها ولونها. وطورت بعض المتحسسات التقنية المتناهية في الصغر لإستشعار حاجة النباتات للمياه والأسمدة لضمان ترشيد إستخدامها من جهة ، والحصول على جودة منتجات عالية من جهة أخرى.

التقنية الطبية المتناهية في الصغر

يقصد بالتقنية الطبية المتناهية في الصغر Nanomedicine تطبيق التقنية المتناهية في الصغر في المجال الطبي ، ويشمل ذلك إستعمال المواد التقنية المتناهية في الصغر ومجسات التقنية المتناهية في الصغر لإلكترونية الحيوية والتقنية المتناهية في الصغر الجزيئية.

تهدف التقنية الطبية المتناهية في الصغر إلى إيجاد أدوات وأجهزة طبية لتشخيص الأمراض ولاسيما المستعصية منها، ومعالجتها

بصورة أكثر كفاية وفاعلية، ويشمل ذلك منظومـات أدويـة متقدمـة ومعالجات طبية جديدة ، ومداخلات منظومـات عـصبية الكترونيـة ومجسات الكترونيـة تقنية متناهية فـي الـصغر، ومعـدات تـصليح الأنسجة التالفة.

يكفي أن نشير هنا إلى مرض السرطان الذي يفتك سنويا بحياة الملايين من البشر في أنحاء العالم المختلفة، ففـي الولايـات المتحـدة الأمريكية مثلا تشير الإحصاءات إلى تسجيل أكثر مـن ١،٤ مليـون إصابة بهذا المرض عام ٢٠٠٧، وتسجيل أكثر من ٥٥٠٠٠٠ وفـاة. قدرت نفقات العلاج والعناية بمرضى السرطان في الولايات المتحـدة الأمريكية بأكثر من ٧٤ مليار دولار عام ٢٠٠٥. وقد دلت التجـارب على أن تحري المرض في مراحله الأولى يوفر فرصا أفضل للـشفاء والتعافي من المرض.

تجرى البحوث حاليا لتوجيه أدوية السرطان بواسـطة قنابـل ذهبية ذكية صغيرة أو إطلاقات تقنية متناهية في الصغر لتدمير الأجزاء السرطانية دون المس بالخلايا السليمة، وذلك بتوجيه هـذه الجـسيمات بأشعة الليزر. كما تم تطوير مجسات تقنية متناهية في الصغر الكترونية للكشف المبكر عن هذا المرض.

فتحت التقنية الطبية المتناهية في الصغر آفاقا رحبة في الطـب والجراحة حيث تبذل حاليا جهودا حثيثة لبناء أوعية دموية جديدة بجسم الإنسان لعلاج تصلب وإنسداد الشرايين، وتطوير إنسان آلـي تقنيـة متناهية في الصغر يتم إدخاله إلى جـسم الإنـسان لتحـري الخلايـا المريضة وإرسال تقارير طبية إلى الطبيب لمعالجتها ، وكـذلك حقـن الأدوية من دون الحاجة إلى زرق الأبر أو إستعمال الأقراص الدوائيـة

التي تفقد بعض فاعليتها بسبب تأثير أحماض المعدة . ويمكن حقن الأدوية إلى جسم المريض وتفعليها حسب الحاجة وبالكمية اللازمة طبقا لإرشادات الطبيب وتوجيهاته.

وتجرى بحوث أخرى لمحاكاة الأعصاب البشرية في الأجهزة الذكية حيث يتوقع بعضهم تكوين بدائل للأعصاب وأنسجة الدماغ لتوضع في أجهزة الحواسيب، وبالعكس أي صنع ألياف متطورة لتحل محل أعصاب الإنسان التالفة. وتشير بعض البحوث إلى إمكانية إستعمال التقنية المتناهية في الصغر لإصلاح التلف في الحبل الشوكي وتمكين المصابين بالشلل من الحركة.، وكذلك تشخيص أمراض أخرى مثل مرض الزهايمر ومكافحة الأمراض بواسطة مسبار صغير. وفي مجال الأدوية توصل العلماء إلى إنتاج عقاقير طبية لمكافحة البكتريا المقاومة للمضادات الحيوية.

تقدم التقنية الطبية المتناهية في الصغر معالجات واعدة لمرضى القلب عبر تقنيات تصوير جهاز الرنين المغناطيسي (أم. أر. أي) وبلورات التقنية المتناهية في الصغر وأنابيب التقنية المتناهية في الصغر.

ويتوقع أن تفضي بحوث وتطوير علوم وتقنيات التقنية المتناهية في الصغر إلى طرق معالجات وتشخيص أكثر فاعلية ونجاعة في المستقبل القريب بفضل تضافر جهود العلماء والباحثين بربط الطب وعلوم وتقنيات التقنية المتناهية في الصغر بعضها ببعضها الآخر في إطار جهود مشتركة.

يقدر عدد عقاقير التقنية الطبية المتناهية في الصغر في العالم بحدود ١٣٠ عقارا. وتعد صناعات التقنية الطبية المتناهية في الصغر

الأمريكية الأكثر تقدما في العالم في الوقت الحاضر. بلغت مبيعات الصناعات المتخصصة بالتقنية الطبية المتناهية في الصغر ما قيمته ٦،٨ مليار دولار عام ٢٠٠٤، وعدد شركاتها أكثر من ٢٠٠ شركة، وعدد منتجاتها العالمية ٣٨ منتجا. تنفق الولايات المتحدة الأمريكية حاليا ٣،٨ مليار دولار سنويا في مجال بحوث التقنية الطبية المتناهية في الصغر وتطويرها.

البحث والتطوير

بدأت ثورة التقنية المتناهية في الصغر في الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٠ عندما طلب الرئيس الأمريكي السابق بل كلنتون زيادة الإستثمارات المالية المخصصة لبحوث التقنية المتناهية في الصغر وتطويرها بمقدار ٢٢٧ مليون دولار في إطار مبادرة عرفت بإسم المبادرة الوطنية للتقنية المتناهية في الصغر، وبموجب هذه المبادرة تضاعف المبلغ المخصص لبحوث التقنية المتناهية في الصغر وتطويرها ليصبح ٤٩٧ مليون دولار عام ٢٠٠١، وإزداد هذا المبلغ في السنين اللاحقة ليصبح ١،٢ مليار دولار عام ٢٠٠٧. ولم يقتصر الإهتمام والدعم للتقنية المتناهية في الصغر على الحكومة الأمريكية وحدها ، بل كذلك المؤسسات الصناعية المختلفة التي وجدت بهذه التقنية آفاقا واسعة لجني الأرباح الطائلة. بلغت تخصيصات المؤسسات الصناعية الأمريكية في مجالات البحث والتطوير بالتقنية المتناهية في الصغر أكثر من ملياري دولار عام ٢٠٠٦ ، و ٦،٥ مليار دولار عام ٢٠٠٧ .

تسعى الولايات المتحدة الأمريكية بجميع الوسائل المتاحة لضمان تفوقها على الدول الأخرى في مجال بحوث وتطوير علوم وتقنيات التقنية المتناهية في الصغر، وذلك بزيادة تخصيصاتها المالية سنة بعد أخرى، وتعزيز الشراكة بين الجامعات ومراكز البحوث من جهة ، والمؤسسات الصناعية من جهة أخرى، لتحويل نتائج البحوث العلمية إلى منتجات صناعية، وتسويقها داخل الولايات المتحدة وخارجها، وحجب هذه النتائج من التداول العام وإحاطة معظمها بدرجة عالية من السرية والكتمان، فضلا عن نشر الوعي على نطاق واسع في الأوساط الجامعية بأهمية دراسات علوم التقنية المتناهية في الصغر وتقنياتها، وتشجيعها على إستحداث برامج دراسات التقنية المتناهية في الصغر بمستوى الدراسات الجامعية الأولية والعليا وحصرها بمواطني الولايات المتحدة الأمريكية إلى أبعد الحدود. تنفق الولايات المتحدة الأمريكية ما نسبته ٢٧ من المائة من مجمل الإنفاق العالمي في بحوث علوم وتقنيات التقنية المتناهية في الصغر وتطويرها.

وحذت دول أخرى حذو الولايات المتحدة الأمريكية بالإهتمام المتزايد بهذه التقنية، فقد بادرت تايوان هي الأخرى بإطلاق برنامجا علميا وتقنيا طموحا لتطوير بحوث تقنيات التقنية المتناهية في الصغر وعلومها ، إذ انها رصدت أكثر من ٩ مليارات دولار عام ٢٠٠٨ لهذا الغرض. تنفذ أكثر من ٤٤٠ مؤسسة صناعية تايوانية و٧٠ جامعة هذا البرنامج لأغراض تطبيقات صناعية وتجارية وطبية مختلفة. كما قررت الحكومة اليابانية الإستثمار بقوة بالتقنية المتناهية في الصغر ولاسيما بحوث التقنية المتناهية في الصغر الحيوية لدعم الإقتصاد الوطني، بتخصيص مبلغ مقداره ملياري دولار سنويا للبحث والتطوير

في مجالات التقنية المتناهية في الصغر المختلفة إعتبارا من عام ٢٠٠٥. ويتوقع أن تزيد دول الإتحاد الأوربي إستثماراتها بالتقنية المتناهية في الصغر إلى ثلاثة أضعاف الإستثمار الحالي بحلول عام ٢٠١٠.

ولا تختلف الحال كثيرا في الصين والهند والبرازيل وروسيا والكيان الصهيوني وسنغافورة ودول أخرى كثيرة، إذ إحتلت برامج بحوث وتطوير علوم وتقنيات التقنية المتناهية في الصغر موقع الصدارة في خططها وبرامجها البحثية ، إدراكا منها بأهمية نتائج هذه البحوث وإنعكاساتها البالغة على تقدمها ورقيها في عالم اليوم الذي باتت تلعب فيه هذه التقنية دورا أساسيا في جميع مجالات التنمية العلمية والإقتصادية والاجتماعية، بعيدا عن هيمنة الدول الأخرى وتحكمها بمفاصل حياتها الأساسية.

تتجه أغلب بحوث التقنية المتناهية في الصغر في أغلب دول العالم في الوقت الحاضر إلى المجالات الآتية :

١ . إيجاد مصادر طاقة جديدة بديلة للنفط والغاز.
٢ . إيجاد عقاقير طبية ومنظومات وأجهزة ومعدات لتشخيص ومعالجة الأمراض المختلفة ولاسيما الأمراض المستعصية منها.
٣ . الإلكترونيات الجزيئية في مجالات الحاسوب ومنظومات المعلومات والإتصالات.
٤ . صناعة الطائرات والمنظومات الفضائية لإيجاد مواد أكثر ملائمة لمتطلبات بيئة الطيران القاسية بما يؤمن السلامة وكفاءة الأداء ، مع مراعاة خفض التكلفة.

٥ . إيجاد مواد مناسبة لتصميم الأجهزة والمعدات الجديدة وتصنيعها بمقياس التقنية المتناهية في الصغر.

بعض الآفاق المستقبلية

يتوقع زيادة دخول التقنية المتناهية في الصغر في مجالات صناعية وتجارية وطبية كثيرة ، ففي مجال صناعة الحاسوب يتوقع أن تؤدي التقنية المتناهية في الصغر إلى تصنيع رقائق مجهرية أصغر حجما وأكثر قدرة مما سيساعد على اختزال حجم الأقراص الصلبة. أثبتت بعض التجارب أن بالإمكان صنع أجزاء صغيرة لحواسيب داخل البكتريا. تصنع حاليا رقائق حاسوبية بالإفادة من التقنيات بمقياس التقنية المتناهية في الصغر. وقد تتطور التقنية المتناهية في الصغر إلى حد إقتباس تقنية عمل الخلايا وإستعمالها في تجديد مكونات الحاسوب. وكذلك في صناعة مكونات الحاسوب ولاسيما الأجزاء الصغيرة منها.

يتوقع أن تحل صمامات البث الضوئي محل مصابيح الأضوية الحالية، موفرة بذلك تخفيض كبير باستهلاك الطاقة. وفي المجالات العسكرية تم الإفادة من تقنية التقنية المتناهية في الصغر بصنع اسلحة ومعدات عسكرية أخف وزنا وأكثر كفاية، وكذلك التحري عن المواد الكيميائية والحيوية. كما يتوقع إستخدام التقنية المتناهية في الصغر أكثر فأكثر في الصناعات العسكرية بصنع معدات حربية هجومية ودفاعية ، وأجهزة إتصالات ومعلومات لإدارة العمليات الحربية، وكذلك الحال بالنسبة لصناعة الطائرات وأجهزة الفضاء.

ويتوقع أن تسهم التقنية المتناهية في الصغر بصنع مواد مبرمجة خفيفة وقوية ولا تحتاج إلى طاقة كبيرة ولا تلحق أضرارا كبيرة بالبيئة، وذات كفاءة أداء عالية جدا في الأغراض المختلفة.

يؤمل علماء الأحياء المهجرية استخدام الفيروسات آلات تصوير تقنية متناهية في الصغر لتكوين فكرة واضحة عما يجري داخل الخلايا. وفي مجال البيئة يمكن أن توفر التقنية المتناهية في الصغر وسائل فاعلة لكشف البكتريا والتخلص منها، وكذلك تنقية مصادر المياه من المواد السامة والمعادن الثقيلة والملوثات الكيميائية العضوية.

لا يتوقع أن تكون هذه التقنية متاحة لمن يطلبها من الدول الأخرى ولاسيما الدول النامية، إذ ستمارس سياسات تتسم بالسرية والكتمان في إطار ما يعرف بحماية حقوق الملكية الفكرية، مما يتطلب أن تبذل الدول الراغبة بإمتلاكها والإفادة من نتائجها لأغراض التنمية أن تبذل جهودا حثيثة لإمتلاكها بكل الوسائل المتاحة وتوظيف قدراتها الإقتصادية في إطار تبادل المنافع بينها وبين الدول الأخرى من منطلق التكافؤ وإستثمار قدرات كل طرف لمصلحة الطرف الآخر.

تتوقع مؤسسة العلوم الوطنية الأمريكية أن تصل مبيعات شركات تقنية التقنية المتناهية في الصغر إلى أكثر من تريلون دولار بحلول عام ٢٠١٥.

أخطار التقنية المتناهية في الصغر

على الرغم من فوائد التقنية المتناهية في الصغر، فان هناك شعورا ببعض مخاطرها الصحية. يشير تقرير نشره «مجلس البحوث الوطني الأمريكي» إلى المخاطر البيئيه والصحية وسلامة الحياة التي

بدأت تفرزها المنتجات ذات الأحجام الصغيرة، إذ أشار إلى أن هناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن للجسيمات التقنية المتناهية في الصغر المعالجة هندسيا، تأثيرات سلبية على صحة الحيوانات المختبرية، وأنه من باب الاحتراس يجب اتخاذ بعض الإجراءات الاحترازية لحماية سلامة العاملين في مجال هذه التقنية وصحتهم ، إذ أثبتت بعض التجارب على الفئران أن استخدام التقنية المتناهية في الصغر قد سبب أضرارا لها في الرئتين.

تبلغ مقاييس المواد المستخدمة في هذه الصناعة أصغر من ١ بالمليون مترا. وفي هذا القياس تبدأ حتى المواد التقليدية تتصرف بطريقة غير تقليدية. وبعض المواد التي لا تدير الكهرباء في حجومها الطبيعية تصبح محركة للكهرباء بشكل ممتاز، حينما تصغر حجومها كثيرا، لكن جسيمات التقنية المتناهية في الصغر «التي هي أصغر بكثير عما هي عليه في الوضع الاعتيادي» قابلة للدخول إلى الخلايا البشرية وتثير ردود فعل كيميائية في التربة، وتتدخل في العمليات الحيوية والبيئية.

تشير التقارير إلى أن هناك حاليا ما يقرب من ٣٠٠ من المنتجات الاستهلاكية موجودة ضمن مقاييس التقنية المتناهية في الصغر، وهذا يشمل الأطعمة والكثير من مواد التجميل مع غياب أية وثيقة تبين أية إجراءات تتعلق بالسلامة. وهذا أمر يستلزم سن التشريعات القانونية اللازمة لحماية المجتمع والبيئة من أية أخطار محتملة من جراء إستعمال المواد والمنظومات التقنية المتناهية في الصغرة.

كما ينبغي عدم التوسع بإستخدامات التقنية المتناهية في الصغر لأغراض عسكرية تدميرية، بل العكس من ذلك، أي توظيفها لتحقيق الأمن والأمان لجميع الدول والشعوب وتحسين البيئة ، وخلق عالم خال من الجوع والخوف والمرض.

بناء القدرات الوطنية

ولكي تواكب بلادنا مستجدات العلوم والتطورات التقنية الحديثة، ولاسيما ما يلامس منها حافات العلوم وحلقات التقنية المتقدمة ذات الأثر البالغ في الحياة المعاصرة، ولأن التقنية المتناهية في الصغر تمثل في الوقت الحاضر ثورة تقنية هائلة لا تقل أهميتها عن ثورة المعلومات والإتصالات في القرن المنصرم، فأن جهودا وطنية حثيثة يجب أن تبذل في جميع المستويات وبأسرع وقت ممكن لإمتلاك ناصية هذه التقنية والإفادة من معطياتها لمصلحة رقي بلادنا وتقدمها ، ولهذا الغرض نقترح الآتي :

١ . وضع خطة علمية وطنية للنهوض بالتقنية المتناهية في الصغر على مدى السنوات الخمس القادمة، ورصد المبالغ المالية اللازمة لتنفيذها، ومراجعتها بصورة دورية منتظمة وتحديثها لضمان حسن تنفيذها.

٢ . قيام وزارة العلوم والتكنولوجيا بإستحداث مركز وطني لعلوم التقنية المتناهية في الصغر وتقنياتها.

٣. قيام وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بإستحداث دراسات جامعية أولية وعليا في جامعة أو أكثر بتخصصات التقنية المتناهية في

الصغر، بالتنسيق والتعاون مع بعض الجامعات العالمية الرصينة والمتميزة في هذا المجال.

٤ . إبتعاث عدد مناسب سنويا من خريجي الفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة وعلوم المواد والطب والهندسة للحصول على الدكتوراه من جامعات عالمية رصينة ومتميزة بتخصصات التقنية المتناهية في الصغر المختلفة.

٥ . عقد برامج شراكة بين الجامعات والمؤسسات العلمية والصناعية في مجال بحوث التقنية المتناهية في الصغر ودراساتها.

٦ . عقد إتفاقات تعاون علمي بين بعض الجامعات العراقية وبعض الجامعات العلمية المتميزة بدراسات التقنية المتناهية في الصغر وبحوثها ، لتقديم المشورة العلمية وتدريب الملاكات التدريسية وتأهيلها في هذا المجال.

الخاتمة

يشهد العالم اليوم ثورة تقنية هائلة في مجالات التقنية المتناهية في الصغر المختلفة ينبغي أن تواكبها بلادنا للإفادة من نتائجها لمصلحة رقي مجتمعها وتقدمه، لذا نرى ضرورة إعتماد برنامج وطني شامل لإعداد ملاكات تقنية متخصصة بهذه التقنية ، بالإفادة من علاقات التعاون الوطيدة القائمة مع الكثير من بلدان العالم المتقدمة في إطار تبادل المنافع المشتركة ، ذلك أن التقنية المتناهية في الصغر تشهد تطورات سريعة جدا ، الأمر الذي يتطلب أن نحث الخطى لإمتلاكها وتوطينها في بيئتها المحلية وجني ثمارها لتحقيق التنمية العلمية المنشودة.

المراجع العلمية

١ . جريو ، داخل حسن

تطور التقانة عبر العصور

منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ،٢٠٠٦ .

٢ . نبذة عن النانوتكنولوجي وإستخداماتها

www.hazemsakeek.com

٣. النانوتكنولوجي والحياة اليومية

www.nanovip.com

٤ . الحاسوب يندمج بالجسد البشري

www.3almani.org

5- Nanotechnology
Britannica online Encyclopaedia
www.Britannica.com

6- Science Daily
www.sciencedaily.com

7- The Ethics of Nanotechnology
www.nanotech-now.com

8- Nanomedicine
www.nanomedicine.com

9- Nanotechnology in the Food Industry
www.Understandingnano.com

10- National Nanotechnology Initiative :
Final Report, 2003, Rice University, U.S.A.

دور المُحدِّثات البغداديات
في إثراء الحركة العلمية
خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين

الدكتورة ناهضة مطر حسن

كلية التربية / جامعة واسط

الملخص :

لم ينحسر دور النساء في العصر العباسي ــ لاسيما البغداديات منهُنَّ ــ في البيت والاسرة ، وانما امتد ليشمل طلب العلم والرحلة من اجله ، وهُنَّ في ذلك يُظهِرنَ رغبتهُن في التواصل مع من سبقهُنَّ من النساء ممن ساهمَن في رواية الحديث النبوي ، لذلك فقد ظهرت نساء عالمات ومتعلمات في علوم مختلفة ، لكن رغبتهُن تركزت في العلوم الدينية وتحديدا حفظ القرآن وتفسيره والحديث والفقه ، وذلك للقدسية التي يكتسبها الحديث النبوي ، وقوة تأثيره على الشارع فضلا عن المكانة التي يشغلها المُحدث تحديدا في المجتمع .

يحاول البحث الاجابة عن تساؤلات عدة ، يأتي في مقدمتها هل برزت اعلام نسوية ــ بالمستوى الذي وصل اليه الرجال ــ يُشار لهُن بالبنان في رواية الحديث النبوي ، الذي وصف عند اهل الحديث بأنه علم ذكوري ؟ كيف خرجت النساء في تلك المرحلة التي يمكن تسميتها بفوضى الاحتلال لاخذ الحديث ؟ وما هي اماكنه ؟ ثم بعد ذلك كيف نظر علماء الحديث لعلمية المرأة ، بمعنى آخر هل اخذوا الحديث عن النساء ، وما مدى قناعاتهم بذلك ؟ وهل هناك نساء كانت لهن فتاويهُن في المسائل الفقهية ؟ .

المقدمة :

تقتضي الطبيعة البشرية لكل الناس ان يسعوا الى تطوير قدراتهم وملكاتهم ، لا سيّما الفكرية ، فالله سبحانه وتعالى قد منحنا العقل لنسعى في هذه الحياة كل بقدر استطاعته وصفحات التاريخ حافلة بنماذج كثيرة قدمت إبداعاتها في مختلف مجالات العلم والثقافة ، ومن الطبيعي ان يكون للنساء قدر من هذا العطاء ، اذ ساهمْنَ في صنع الحياة ، لذلك فقد شهد الواقع العربي ، نبوغ عدد لا يُستهان به من النساء ، في مجالات مختلفة في الادب والحكمة والطب ، وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصصا كثيرة ، عن نساء ، كُنَّ القدوة في مجتمعاتهن .

ولا ريب في ان الاسلام قد رفع من مكانة المرأة وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات والمكانة الاجتماعية ، ويكفي ان نذكر بفخر ان الله سبحانه وتعالى قد جعل للنساء دورا في الدعوة منذ ان نزل الوحي على الرسول (ﷺ) فكانت السيدة خديجة زوج الرسول (ﷺ) اول من ساندت زوجها ووقفت الى جانبه ، كما ان بيعة النساء للرسول وهُجرتهُنَّ ، وجهادهُنَّ ، وحرصهُنَّ على معرفة احكام دينهُنَّ ، وتقدير الرسول (ﷺ) لهُنَّ مسائل واضحة وجلية لا غبار عليها .

لكن ذلك لم يستمر طويلا ، لاسيما بعد حركة الفتوحات الاسلامية واتساعها في العصر الاموي ، اذ انها غمرت البلاد بالسبايا والجواري كما ادت الى تسرب اخلاق الاعاجم الى العرب بسبب الامتزاج الاجتماعي والثقافي ، وإن حافظ المجتمع في العصر الاموي ، قدر المُستطاع على التقاليد والمُثل العربية ولاسيما ما يخص المرأة .

ان الانفتاح الاجتماعي ، الذي شهده العراق في العصر العباسي ، للثقافات المختلفة ــ لاسيما ان بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية ، قد اصبحت من اهم مراكز النشاط العلمي فضلا عن السياسي والاقتصادي والاجتماعي مهد لظهور عناصر مختلفة أثرت في واقع البلاد وتحديدا في حياة حكام السلطة (الخلفاء) الذين اتخذوا الجواري في قصورهم ، ومنحوهُنّ سلطة كبيرة في المجتمع ، بفضل ما يَتمتعّن به من مواهب متعددة وتحديدا في الشعر والموسيقى والغناء ، واستطعنّ بفضل مواهبهُنّ تلك ، من السيطرة على قلوب الخلفاء ، حتى اصبحَنّ زوجات للخلفاء ، واصبح اولادهُنّ خلفاء ، وهذا يؤشر حالة سلبية في المجتمع ، ظهرت آثارها في الحياة السياسية اولا ، لا سيما بعد تولي خلفاء ضعفاء ، كما ادت الى تدني مكانة المرأة ثانيا ، إذ ادت الى إنحسار المساحة التي تتحرك عليها المرأة ــ لاسيما الحُرة منهُن ــ في المجتمع ، التي حاولت التعبير عن ذاتها بالتعلم ، الذي يشكل الدعامة الكبيرة لاعادة مكانتها ، وتغيير نظرة المجتمع للنساء عموما .

على الرغم من التجني الواضح عند بعض المؤرخين في ذكر دور النساء المؤثر في الحركة الفكرية وطمس اخبارهُنّ ، وتحديدا في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، لاسيما هؤلاء الذين نظروا لها نظرة متدنية ، محاولين إستحضار قيم وتقاليد اجتماعية بالية لتقييدها بقيود لا ينبغي لها ان تتجاوزها ، فضلا عن ظهور حركات دينية حَجرت على المرأة وقيدتها بقيود ، لكن كل ذلك لم يُثبِط طموح النساء ، وحرصهُن على الرُقُي بواقعهُن المُعاش ، من خلال طلب العلم ،لذلك فقد ظهرت نساء عالمات ومتعلمات في علوم مختلفة ، لكن رغبتهُن تركزت كما ذكرنا في العلوم الدينية وتحديدا حفظ

القرآن وتفسيره والحديث والفقه ــ سواء من نساء بغداد او ممن رَحلنَ اليها ــ وذلك للقدسية التي يكتسبها الحديث النبوي ، وقوة تأثيره في الشارع فضلا عن المكانة التي يشغلها المُحدث تحديدا في المجتمع ، كما عبرت المُحدثات في تلك المرحلة ايضا عن رغبتهُن في التواصل مع من سبقهُن من النساء ممن ساهمَن في رواية الحديث النبوي .

إن التعتيم الذي طغى على اخبار النساء في العراق في العصر العباسي تحديدا ، شكل عقبة كبيرة امام البحث ، حتى ان تاريخ وفيات اغلبهُن لم يذكر ، لكننا حاولنا استقصاءها من الاخبار الواردة في ثنايا تراجمهُن .

فضلا عن ذلك فإن المعلومات الواردة عن اعداد تلك النسوة ، وكيفية طلبهُن العلم قليلة جدا ، لكننا حاولنا توظيف هذه المعلومات لاظهار صورة عن نساء بغداد ، ويأتي تحديدنا لدراسة نساء بغداد ، لضبابية الصورة التي قدمها المؤرخون حول نساء العراق في باقي مناطقه .

يحاول البحث الاجابة عن تساؤلات عدة ، يأتي في مقدمتها هل برزت اعلام نسوية ــ بالمستوى الذي وصل اليه الرجال ــ يُشار لهُن بالبنان في رواية الحديث النبوي ، الذي وصف عند اهل الحديث بأنه علم ذكوري ؟ كيف خرجت النساء في تلك المرحلة التي يمكن تسميتها بفوضى الاحتلال لاخذ الحديث ؟ وما هي اماكنه ؟ ثم بعد ذلك كيف نظر علماء الحديث لعلمية المرأة ، بمعنى آخر هل اخذوا الحديث عن النساء ، وما مدى قناعاتهم بذلك ؟ وهل هناك نساء كانت لهن فتاويهُن في المسائل الفقهية ؟ .

العوامل التي ساعدت على ظهور النُخبة النسوية في طلب الحديث وروايته :

مرّ العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين بأوضاع عصيبة جــدا ، يأتي في مقدمتها تولي خلفاء لم يكونوا بمستوى النكبات التي تعصف بالبلاد ، لا سيما في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وما بعده ، فضلا عــن وجود قوى خارجية اجنبية تدخلت بالشؤون الداخلية للبلد تمثلت بالاتراك الذين برزوا قوة مؤثرة في سير الاحداث بعد وفــاة الخليفـــة الواثـــق بـــالله عـــام (٢٣٢هــ/ ٨٤٦م) ثم البويهيون ، الذين شغلت فترة حكمهــم العــراق ســتا وستونّ سنة من القرن الرابع الهجري[١]، فضلا عن التركة الثقيلة التي ورثها الخلفاء ، نتيجة لسياسة اغلب من سبقهم ، سواء اكان في التعامل مع حركات المعارضة[٢] ام في تدخل النساء الجواري بشؤون الحكم وتدهور الاوضـــاع الاقتصادية ، حتى عَرفتْ خزينة الـــدولة الافلاس ــ لاسيما فـــي القـــرن الرابع الهجري ــ ووصل الامر الى عجز الخليفة عن دفع رواتب الجند وهذا ما ادى الى دخول البلد في حالة من الفوضى والارتباك[٣].

يرى آدم متز ان هذه المشاكل السياسية اثرت بشكل كبير فـــي الواقـــع الاجتماعي ، لذلك تعالت الاصوات المطالبة بحقوقهـــا ، ومنهـــا الاصـــوات النسوية ، التي اصبحت واضحة ومؤثرة ، لاسيما في القرن الثالث الهجـــري

---

[١] احمد امين ، ظهر الاسلام ، ط١ (دار الكتـــب العلميـــة ، بيـــروت ، ٢٠٠٤) ج١ ، ص٩ ؛ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية في عصر الفوضـــى العـــسكرية ، ط٢ (مكتبة انمثنى ، بغداد ، ١٩٧٧) ص٥٥ .

[٢] الشيخ محمد الخضري بك ، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ، الدولة العباســـية ، ط١ (مؤسسة المختار ، القاهرة ، ٢٠٠٣) ص ١٦٧ .

[٣] فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية ، ص٧٠

وهي تطالب بضرورة اعطائها الفرصة للمشاركة في المهام الكبيرة ، ورفض النظرة الدونية التي نظر بها بعضهم اليهن[٤] .

لا شك في ان دور النساء لاسيما الجواري كان مؤثرا في قصور الخلافة، إذ كانت لهُن الكلمة النافذة في امور الدولة [٥] ، اما بالنسبة للنساء الاخريات في المجتمع البغدادي ، فيمكن القول ان تعليمهُن قد انحسر في طبقة معينة ، تلك التي هيأت لها الظروف مستلزمات اخذ الحديث ، إذ ان الخوف والحرص عليهُن ، كان السبب الرئيسي في ذلك الانحسار .

من خلال الجدول المرفق ادناه[٦] ، يمكن ملاحظة الانحدار الأُسري للاعلام النسوية التي ذكرتها الاخبار ، ويأتي في مقدمتها الاسرة العباسية التي حرصت على تعليم اولادها ــ نساءً ورجالاً ــ ودفعهم الى حفظ ورواية

---

[٤] الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقله محمد عبد الهادي ابو ريدة ، ط٣ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧) ج٢، ص١٧٢

[٥] الخطيب البغدادي ، احمد بن علي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٢م) ، تاريخ بغداد او مدينة السلام ، ط٢ ، تحقيق مصطفى عبد القادر (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤) تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣١ ، ٧٨٠٠ الخيزران؛ ابن الساعي ، علي بن انجب (ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٦م) نساء الخلفاء المسمى جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والاماء ، تحقيق د . مصطفى جواد (دار المعارف ، مصر ، د . ت) ص ٩ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ؛ علي ابراهيم حسن ، التاريخ الاسلامي العام ،(مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢) ص ٥٨٦ ؛ كحالة ، عمر رضا ، اعلام النساء ، ط٢ (المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٥٩) ج ١ / ص١٨٥ ثمل ،ج٣ / ص٣٣١ علم ، ج٥ / ص٦٧ ام المقتدر .

[٦] ص١١ ، التراجم رقم ١ ، ٢ ، ٣ .

الاحاديث التي تخدمهم ــ اقصد تلك التي تمجد وجودهم وتضفي عليه القدسية ــ فقد اخذت زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس (عاشت في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) عن ابيها [٧].

فضلا عن ذلك فقد حرصت اغلب الأُسر العلمية على تورّيث ابنائها العلم الذي يحملونه ، ويتبين ذلك من خلال اسماء آباء النساء المتعلمات ، فأكثرهم ــ أي الآباء ــ حملوا العلم ووصلوا به الى مراتب علمية مميزة سواء أكان في الحديث ام الفقه فضلا عن التصنيف فيه ، فقد اخذت ام عيسى بنت ابراهيم بن اسحاق الحربي (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)[٨] وعبدة بنت عبد الرحمن بن مصعب بن عبد الله الانصارية (ت بعد ٣٣١هـ/ ٩٤٢م) [٩]والخلدية بنت جعفر الخلدي (ت بعد ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) [١٠]وام سلمة فاطمة بنت ابي عبد الله بن ابي داود السجستاني (ت بعد ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م)[١١] وامة الواحد ستيتة بنت القاضي الحسين بن اسماعيل بن محمد الضبي المحاملي (ت٣٧٧هـ/ ٩٨٧م) [١٢]وامة السلام بنت القاضي ابي بكر احمد بن كامل بن خلف (ت٣٩٠هـ/ ٩٩٩م)[١٣] الحديث عن آبائهن ، كما سمعت بعض

---

[٧] ينظر الترجمة رقم ٢ .

[٨] ينظر الترجمة رقم٥ .

[٩] ينظر الترجمة رقم ٦ .

[١٠] ينظر الترجمة رقم ٧ .

[١١] ينظر الترجمة رقم ٨ .

[١٢] ينظر الترجمة رقم ٩ .

[١٣] ينظر الترجمة رقم ١٠ .

المُحدِّثات عن إخوانهُن ، فقد حرصت الحوارية بنت عيسى الخراز(عاشت في القرن الرابع الهجري) على سماع الحديث عن اخيها[١٤] .

فضلا عن ذلك فقد سعى بعض المُحدثين الى نقل العلم ، لزوجاتهم ، ومنهم سعيد بن يحيى بن قيس (عاش في القرن الثالث الهجري) الذي روى ما حفظه من حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى زوجته ام عمر بنت ابي الغصن حسان بن زيد الثقفي (عاشت في القرن الثالث الهجري) [١٥].

كما اخذت بعض المُحدثات الحديث عن كتب ورثتّها عن اجدادهُن ، فقد ورثت سمانة بنت حمدان محمد بن موسى الانبارية (عاشت في القرن الرابع الهجري) كتب جدها الوضاح بن حسان وروت عن هذه الكتب[١٦].

على الرغم من الاوضاع السياسية السيئة التي ذكرناها ، فقد خرجت بعض النساء ممن لم يحظين بالحديث في بيوتهُن ، لاخذه في مجالس نسوية خاصة ، يبدو ان كثيرا منهُن كُن حريصات على حضورها ، للتعلم والتفقه وهذا ما سنذكره لاحقا ، كما اخذ القليل منهُن العلم عن مشايخ عصرهُن في بغداد ، فقد سمعت خديجة ام محمد (عاشت في القرن الثالث الهجري) الحديث عن اسحاق بن يوسف الازرق (ت ١٩٥هـ/ ٨١٠م) واحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)[١٧].

---

[١٤] ينظر الترجمة رقم ١١.

[١٥] ينظر الترجمة رقم ١ .

[١٦] ينظر الترجمة رقم ١٢ .

[١٧] ينظر الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣٣ ، ٧٨٠١ .

ما ذكرناه آنفا يوضح العوامل التي هيأت للنساء البغداديات طريقهُن العلمي ، الذي لم ينقطع ، ويأتي في مقدمتها الأُسر العلمية التي تنحدر منها تلك النسوة ، التي ساهمت بشكل كبير في تهيئة الفرصة العلمية لهُن ، فضلا عن حرصهُن للاستزادة من العلوم ، لذلك وجدنا ان منهُن من كانت تحمل علوم اخرى كالنحو والحساب وعلوم اخرى[١٨]. وهُن بدورهُن ساهمَن بدرجة كبيرة على نقل الحديث الى ابنائهُن ، فتذكر الروايات ان ابن العالمة ستيتة بنت القاضي الحسين بن اسماعيل بن محمد الضبي المحاملي ، كان قاضيا[١٩]

لم يتوقف دور النساء على طلب الحديث وروايته بل ان بعضهُن دعمنّ اهل الحديث والفقه، بالاوقاف الخاصة لهُن ، فقد وقفت بنفشا بنت عبد الله الرومية مولاة المستضئ بالله (ت ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م) بيتها الذي يقع على نهر دجلة ، وجعلته مدرسة للفقهاء [٢٠].

طرق اخذهُن الحديث وأماكنه :

لا تختلف طرق اخذ النساء للحديث عن تلك الطرق المتعارف عليها سواء عن طريق السماع أوالحفظ او القراءة والاملاء ... والحصول على الاجازة في الرواية[٢١]ويبدو انهُن كُن حريصات على اخذ الحديث بدقة

---

(١٨) م . ن ، ج١٤ / ص٤٣٦ ، ٧٨٠٥ خديجة ام عمر و ص٤٤٣ ، ٧٨٢٠ امة الواحد ستيتة ؛ ابن كثير ، اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) البداية والنهاية في التاريخ ، ط٢ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٥) ج١١ / ص٣٢٩ .

(١٩) م . ن ، ج١٤ / ص٤٤٣ ، ٧٨٢٠ .

(٢٠) ابن الساعي ، نساء الخلفاء ، ص ١١١ .

(٢١) ينظر عثمان موافي ، منهج النقد التاريخي عند المسلمين والمنهج الاوربي (مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، د . ت) ص٦٤ .

وحرص كبيرين حتى ان بعضهن وصلنَ الى مراتب علمية عُليا ، ويتبين ذلك من الالقاب التي حصلنَ عليها فقد حملت كل من ام عيسى بنت ابراهيم بن اسحاق الحربي[٢٢] وامة الواحد ستيتة بنت القاضي الحسين بن اسماعيل بن محمد الضبي المحاملي[٢٣] لقب " العالِمة" واطلق على كل من فاطمة بنت احمد السامرية (ت ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م)[٢٤] وفاطمة بنت عبد الله بن ابي داود السجستاني [٢٥] لقب " مُحدِّثة" .

برزت خصوصية النساء في طلب الحديث وروايته من خلال الاماكن التي كانت مراكزهُن لاخذ العلم ، إذ يأتي في مقدمتها المنازل ، ومن الطبيعي اذا كان الاب او الاخ او الزوج هو المحدِّث ، ان يكون المنزل هو مكان التعليم ، وهكذا عرفت الأُسر العلمية المشهورة في التاريخ العربي الاسلامي التي كانت منازلها بمثابة مدارس للعلم والثقافة ، ومنها قصور الخلافة ، حيث اخذت زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ،الحديث فيها وعقدت مجالسها ايضا [٢٦] ، التي حضرها مُحدِّثون ممن وصلوا الى مراتب علمية مميزة في طلب الحديث منهم عاصم بن علي الواسطي (ت ٢٢١هـ/ ٨٣٥ م) والقاضي جعفر بن عبد الواحد (ت ٢٥٨هـ/ ٨٧١م)[٢٧].

---

[٢٢] ينظر الترجمة رقم ٥ .

[٢٣] ينظر الترجمة رقم ٩ .

[٢٤] الترجمة رقم ٤ .

[٢٥] الترجمة رقم ٨ .

[٢٦] ينظر الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣٥ ، ٧٨٠٣ .

[٢٧] م . ن .

فضلا ذلك فقد برزت بيوتات علمية اخرى ، منها منزل عبدة بنت عبد الرحمن الانصارية التي كانت تجلس في منزلها في مُربعة الخرسي[٢٨] لرواية الحديث[٢٩] وكذلك منزل الحوارية بنت عيسى الخراز التي عقدت فيه مجلسها لرواية الحديث واخذت عنها فاطمة بنت احمد السامرية وغيرها [٣٠].

كما انتقلت بعض المُحَدّثات الى منازل مُحدِّثين آخرين لرواية الحديث ، فقد جلست ام عمر بنت ابي الغصن حسان بن زيد الثقفي عند دار معاذ علي بن مسلم [٣١]، وكذلك عقدت فاطمة بنت ابي بكرعبد الله بن ابي داود السجستاني مجلسها في منزل ابي اسحاق ابراهيم بن محمد بن يحيى المزكي[٣٢] .

ومن الجدير ذكره هنا ، حالة الإصرار الذي تميزت بها اغلب المُحَدّثات على طلب الحديث وإن وصلنّ الى مراحل متقدمة فيه ، لذلك فقد حضرنَ مجالس الكثير من المُحدِّثين ، ويبدو انهُّن كُن يجلسنّ في مكان من المجلس قد خُصص لهُّن ، فقد حضرت خديجة ام عمر مجلس احمد بن حنبل للاستزادة

---

[٢٨] محلة شرقي بغداد اخذت اسمها من الخرسي صاحب شرطة المنصور ينظر ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت، ، د . ت) مج٤ / ص٢٤٣ .

[٢٩] الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣٩ ، ٧٨١٣ .

[٣٠] م . ن ج١٤ / ص٤٣٩ ، ٧٨١٢ ؛ ابن عساكر ، علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق محب الدين ابي سعيد عمر بن غرامة العمري (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٥) ج٥ / ص١٣٩ .

[٣١] م . ن ، ج ١٤ / ص٤٣٣ ، ٧٨٠١ .

[٣٢] م . ن ، ج١٤ / ص٤٤٢ ، ٧٨١٨ .

من الحديث النبوي[٣٣] كما اخذت امة الواحد ستيتة بنت القاضي الحسين بن اسماعيل بن محمد الضبي المحاملي الحديث عن مُحدثين كثيرين فضلا عن والدها[٣٤] .

وعلى الرغم من حرص المُحدثات على الاستزادة من الحديث ، لكننا لم نعثر على نساء رحلنَ لطلب الحديث الا مع أُسرهُن ، وهذا ما يوضح الى حدٍ كبير سبب انحسار او تداول الاحاديث التي يروينّها الأ في حدود امصارهُن ، مقارنة بالرجال المُحدثّين ، الذين جابوا مختلف الامصار وعُرفت اسماؤهم وتناقلت الألسن احاديثهم ، لكن من ناحية ثانية فقد شهدت بغداد حضور محدثات من مناطق اخرى فقد حضرت جمعة بنت احمد بن محمد بن عبيد الله النيسابورية الى بغداد عام (٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م) واخذ عنها الكثير من المحدثين [٣٥] .

موقف علماء الحديث من علمية النساء المحدثات:

اعتمد علماء الحديث والفقه في قبول رواية النساء للحديث على ما ثَبُتَ عن اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من قبولهم لروايتهُنَّ[٣٦] ، وفي ذلك يقول الزركشي " رواية المرأة مقبولة لانها في الشهادة فوق الاعمى وقد

---

[٣٣] م . ن ، ج١٤ / ص٤٣٣ ، ٧٨٠١ .

[٣٤] م . ن .ج١٤ / ص ٤٤٣ ، ٧٨٢٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١١ /ص٣٢٩ .

[٣٥] م . ن ، ج١٤ / ص٤٤٤ ، ٧٨٢٤ .

[٣٦] البزدوي ، علي بن محمد الحنفي(ت ٣٩٠هـ/٩٩٩م) كنز الوصول الى معرفة الاصول (مطبعة جاويد بريس ، كراتشي ، د . ت) ج١ / ص١٦٩ .

قبلت رواية الاعمى ...فالمرأة اولى "[٣٧].

فضلا عن ذلك فإن بعض الاحاديث لم تأتِ روايتها ، إلا عن طريق النساء ، وهي تتضمن الكثير من سُنن الاسلام ، وفي رفضها ذهاب للكثير من تلك السُنن [٣٨] لذلك فمن الاولى قبول روايتهُنّ للحديث ، وما ذكرناه ينفي ذكورية الرواية [٣٩] التي حسَرتْ رواية الحديث بالرجال ، ويؤكد مبدأ القبول من الكُل ، طالما التزموا بقواعد واصول رواية الحديث .

لكنهم من جهة اخرى ، اختلفوا في انه هل يمكن قبول جرح النساء وتعديلهُنّ ، فأبو حنيفة ابدى قبوله على ذلك ، في حين رفض مالك والشافعي واحمد في اشهر روايتيه بأنه لا مدخل لهُنّ في ذلك[٤٠].

ويبدو من الروايات ان بعض علماء الجرح والتعديل قد طبقوا شروطهم في قبول الروايات على النساء وجرحوا بعضهن ، فقد جَرح يحيى بن معين الغطفاني البغدادي (ت ٢٣٣هـ/٨٤٧ م) امام الجرح والتعديل في بغداد ، ام

---

[٣٧] بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ/ ١٣٩١م) البحر المحيط في اصول الفقه ، ط١ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠) ج٣ / ص٣٧١ .

[٣٨] ابن قيم الجوزية ، محمد بن ابي بكر (ت٧٥٢هـ/ ١٣٥٩م) زاد المعاد في هدى خير العباد ،ط١٤ ، تحقيق شعيب وعبد القادر الارناؤوط (مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الاسلامية بيروت ، الكويت ، ١٩٨٦)ج٥ / ص٦٩١.

[٣٩] عبد السلام وعبد الحليم واحمد بن عبد الحليم آل تيمية ، المسودة في اصول الفقه ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد (دار المدني ، القاهرة ، د . ت) ج١ / ص٢٣٣ .

[٤٠] المروزي ، محمد بن نصر (ت٢٩٤هـ/ ٩٠٦م) اختلاف الائمة العلماء ، ط٢ ، تحقيق صبحي السامرائي (عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٦هـ) ج٢ / ص٤٠٢ .

عمر بنت ابي الغصن حسان بن زيد الثقفي بقوله انها "ليست بشئ" [٤١]على الرغم من ان مُحدثين عرفوا بالثقة والعلم والصدق ، أخذوا عنهـا ، ومنهم محمد بن الصباح الجرجرائي (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) وابراهيم بن عبد الله الهروي (ت٢٤٤هـ/ ٨٥٨م) [٤٢]، وكذلك الامر بالنسبة لسُمانة بنت حمدان محمد بن موسى الانبارية التي جُرحتْ ، بسبب ان روايتها عن ابيها[٤٣] كانت عن طريق عمرو بن زياد المتهم في روايته[٤٤] وقد اخذ عنها ابو القاسم الطبراني(٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) وابو بكر الشافعي(ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م) [٤٥].

ومن الجدير ذكره هنا ان بعض النساء ، قد جمعّن بين رواية الحديث واستنباط الاحكام الفقهية للافتاء في المسائل المختلفة التي تعرض عليهُن ، إذ جَّوز بعض الفقهاء قضاؤها في جميع الاحكام[٤٦] ، وهي في الحقيقة مُهمة صعبة جدا ، اذ لا بد ان يكون الشخص ممن يتولى هذه المهمة عالما بالكتاب

---

[٤١] الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) ميزان الاعتدال في نقد الرجال ،ط١ ، تحقيق الشيخين علي محمد معوض وعادل احمد عبد الموجود (دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٩٩٥) ج٧ / ص ٤٧٨ ، ١١٠٣٥ .

[٤٢] م . ن .

[٤٣] م . ن ، ج٨ / ص١٧٥ ، ٤٢٩٠ حمدان بن موسى .

[٤٤] ينظر ابن عساكر ، تاريخ ، ج١٣ / ص٢٢٩ ؛ الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ج٧ / ص٤٧٠ ، ١٠٩٧٤ .

[٤٥] الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٤١ ، ٧٨١٤ .

[٤٦] ينظر آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج٢ / ١٧٣ .

والسُّنة[٤٧]، فقد وجدنا ان هناك من النساء ممن تصدينَّ لهذه المهمة ومنهُن ام عيسى بنت ابراهيم بن اسحاق الحربي ، إذ ذكر الخطيب البغدادي رأيه فيها قائلا انها " تفتي في الفقه" [٤٨]، كما ان منهُن من تولت الافتاء على مذهب معين ، لا سيما ان المذاهب قد وضعت واكتملت مناهجها في القرن الرابع الهجري [٤٩] فقد تولت امة الواحد ستيتة بنت القاضي الحسين بن اسماعيل بن محمد الضبي المحاملي ، الافتاء على مذهب الشافعي فضلا عما ذكرناه آنفا من روايتها للحديث [٥٠] .

بعض ما ورد ذكره من رواياتهُنّ في الحديث

تنوعت الاحاديث التي روتها المُحدِثّات ، في مواضيعها ، ما بين الاحاديث التي تدعو الى صالح الاعمال والوعظ والنصح او في احكام النساء ، وهناك احاديث يمكن ان نقول ان رواية بعضهن لها ، كان لاغراض سياسية أي لدعم سلطة الدولة .

يتبين لنا من خلال رواياتهُنّ للحديث ، ان اغلبها تركزت في الدعوة الى الخير والوعظ والابتعاد عن الشر فقد روت ام سلمة فاطمة بنت ابي بكر عبد الله بن ابي داود السجستاني حديث الرسول (ﷺ) لا تقوم الساعة الا على

---

[٤٧] محمد ضاري حمادي ، الحديث النبوي الشريف واثره في الدراسات اللغوية والنحوية، ط١ (مؤسسة المطبوعات العربية ، بيروت ، ١٩٨٢) ص٢٥٢ .

[٤٨] ينظر الترجمة رقم ٥ .

[٤٩] احمد امين ، ظهر الاسلام ، ج٢ / ص٤٤ .

[٥٠] ينظر الترجمة رقم ٩ .

شرار الناس " [٥١] كما روت سمانة بنت حمدان الانبارية حديث الرسول (ﷺ) "من اخذ من طريق المسلمين شبرا طوقه يوم القيامة من سبع ارضين " [٥٢].

هناك من المُحدِّثات من نقلت احاديث عن امهات المؤمنين ــ زوجات الرسول (ﷺ) ــ فقد روت ام عمر بنت ابي الغصن حسان بن زيد الثقفي حديث عن السيدة عائشة تحذر فيه من الانتقاص منها بقولها " لا ينتقصني احد في الدنيا الا تبرأت منه في الآخرة " [٥٣] .

كما سعت بعض المُحدِّثات الى نقل الاحاديث التي تؤرخ لمآثر اجدادهُنّ وشجاعتهم التي عبر عنها الرسول بحديثه ، فقد روت عبدة بنت عبد الرحمن بن مصعب بن ثابت بن ابي قتادة الانصارية حديث الرسول (ﷺ) في ابي قتادة " افلح الوجه اللهم اغفر له " [٥٤] وقوله " اللهم احفظ ابا قتادة ..." [٥٥] .

ولم تكن الاحكام التي وردت في النساء بعيدة عن احاديثهُنّ فقد روت عبدة بنت عبد الرحمن بن مصعب بن ثابت بن ابي قتادة الانصارية حديث الرسول (ﷺ) " ليس على النساء غزو ولا جمعة ولا تشييع جنازة "[٥٦].

---

[٥١] مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٥م)الصحيح (دار الفكر ، بيروت ، د . ت) ج٨ / ص٢٠٨ ، باب قرب الساعة .

[٥٢] الهيثمي ، نور الدين علي بن ابي بكر (ت ٨٠٧هـ /١٤٠٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨) ج٤ / ص١٧٤ .

[٥٣] الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣٥ ، ٧٨٠٤ .

[٥٤] الهيثمي ، مجمع ، ج٩ / ص٣١٩ .

[٥٥] م . ن ، ج٩ / ص٣١٩ .

[٥٦] م . ن ، ج٢ / ص١٧٠ .

كان لنساء الأسرة العباسية دور مهم في نقل الأحاديث التي تؤيد شرعية الخلافة العباسية، وتبرز دور العباس عم الرسول والتبشير بقيام الدولة العباسية من اجل كسب الرأي العام الى جانبهم ضد خصومهم – أي العلويين – الذين عبروا عن معارضتهم بالاحتجاج تارة والثورات تارة اخرى [٥٧]، فقد روت زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي عن ابيها عن جدها – أي العباس – الذي حضر مجلس الرسول (ﷺ) وكان عنده جبرائيل ... ودعائه له بقوله " اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل ، واجعله من اهل الايمان " [٥٨].

كما تناقلوا حديثا نسبوه للرسول (ﷺ) يبشر به ابن عباس بالخلافة قائلا " اذا افضى الامر الى ولدك فسكنوا السواد ولبسوا السواد وكانت شيعتهم اهل خراسان لم يخرج الامر منهم الا الى عيسى بن مريم (عليه السلام ")[٥٩] ولا غرابة في ان الكثير من شاكلة هذه الاحاديث كانت موضوعة على حديث الرسول (ﷺ) اسقطها علماء الجرح والتعديل [٦٠].

ومن صفوة القول ، يمكننا ان نؤكد ان أثر النساء في الحركة العلمية كان فعالا ، فالنساء شاركنَ الرجال في حمل العلم المُقدس وروايته ، حتى بلغنَ مراحل متقدمة فيه ، ويتبين ذلك ، من خلال تلك الاعلام النسوية التي تناولها

---

[٥٧] الدوري ، عبد العزيز ، العصر العباسي الاول ، ط٣ (دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٧) ص٦٢ .

[٥٨] الهيثمي ، مجمع ، ج٩ / ص٢٧٦ .

[٥٩] الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣٥ ، ٧٨٠٤ .

[٦٠] الدوري ، العصر العباسي ، ص٢٣ .

البحث ، حيث سعى رواة الحديث الى اخذ الحديث منهُن ، وكانوا حريـــصين على ذلك ، والدليل على ذلك انهم ذكروهُنّ في قائمـــة مـــشايخهم العلمـــاء ، ولابد من ان هناك الكثير من النساء ممن غفلت اقلام المؤرخين عنهُن ، لذلك يمكن أن نعد ، ان ما ذكروه لا يرقى الى المستوى العلمي والثقافي ، الـــذي بلغنّه في تلك المرحلة .

جدول بمُحدّثات اهل بغداد او ممن رحلّن لها وسكنّ فيها

ت	الاسم	تاريخ الوفاة	شيوخهُنّ	من اخذ عنهُنّ من المُحدّثين	آراء العلماء	المصدر
١	ام عمر بنت ابي الغصن حسّان بن زيد الثقفي	عاشت في القرن الثالث الهجري	ابيها وزوجها سعيد بن يحيى بن قيس (عاش في القرن الثالث الهجري)	محمد بن الصباح الجرجرائي (ت ٢٤٠هـ) واحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) وابراهيم بن عبد الله الهروي (ت ٢٤٤هـ)	جرحها يحيى بن معين الغطفاني البغدادي (ت ٢٣٤هـ) بقوله انها ليست بشيء في حين ان علماء اهل الحديث اخذوا منها	الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣٣ ، ٧٨٠١ ؛ الذهبي ، ميزان، ج٧ / ص٤٧٨ ، ١١٠٣٥
٢	زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس	عاشت في القرن الثالث الهجري	ابيها	عاصم بن علي الواسطي (ت ٢٢١هـ) وعبد الصمد بن موسى الهاشمي (ت٢٤٥هـ) وجعفر بن عبد الواحد القاضي (ت ٢٥٨هـ)	من افاضل النساء حدثت من حفظها	الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣٥، ٧٨٠٣
٣	خديجة ام محمد	عاشت في القرن الثالث الهجري	عن اسحاق بن يوسف الازرق (ت١٩٥هـ) واحمد بن حنبل	عبد الله بن احمد بن حنبل (ت ٢٩٠هـ)	محدثة	الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٣٦ ، ٧٨٠٥
٤	فاطمة بنت احمد السامرية	٣٢٣هـ	سمعت الحوارية بنت عيسى الخراز	اخذ عنها علي بن الحسن الصيقلي (ت٣٢٣هـ)	محدثة فاضلة	الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٤٤، ٧٨٢٢ ؛ ابن عساكر، تاريخ ، ج٥ / ص١٣٩ ؛ كحالة ، اعلام ،ج٤ / ص٢٧
٥	ام عيسى بنت ابراهيم بن اسحاق الحربي	٣٢٨هـ	ابيها	اخذ عنها الكثير لاسيما انها تولت الافتاء	عالمة فاضلة تفتي في الفقه	الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٤٢ ، ٧٨١٧؛ كحالة ، اعلام ج٣، ص٢٣٨
٦	عبدة بنت عبد الرحمن بن مصعب بن ثابت الانصارية	بعد ٣٣١هـ	ابيها	محمد بن مخلد العطار الدوري (ت٣٣١هـ) وسليمان بن احمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)	محدثة عاقلة فصيحة	الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٤٠ ، ٧٨١٣ ؛ كحالة ، اعلام ، ج٣ / ص٢٣٩

٧	الخلدية بنت جعفر بن محمد الخلدي	بعد ٣٤٨هـ	ابيها	اخذ عنها الكثير	روت عن ابيها عابدة زاهدة	الخطيب البغدادي ، تاريخ ، ج١٤ / ص٤٤٤ ، ٧٨٢٣ ؛ كحالة ، اعلام ، ج١ / ص٣٥٣
٨	فاطمة بنت عبد الله بن ابي داود السجستاني	بعد ٣٦٢هـ	ابيها	ابو القاسم عبد الواحد محمد بن جعفر وغيره (ت ٤٠١هـ)	محدثة	الخطيب البغدادي ، تاريخ، ج١٤ / ص٤٤٢ ، ٧٨١٨ ؛ كحالة ، اعلام ج٤ / ص٦٩
٩	امة الواحد ستيتة بنت القاضي الحسين بن اسماعيل بن محمد الضبي المحاملي	٣٧٧هـ	ابيها وغيره	اخذ عنها الكثير لاسيما وانها تولت الافتاء مع ابي علي بن ابي هريرة	عالمة فاضلة جمعت علوم مختلفة من القرآن والحديث والفقه والنحو والحساب الخ	الخطيب البغدادي ، تاريخ،ج١٤ / ص٤٤٣ ، ٧٨٢٠ ؛ ابن كثير ، البداية ج١١ / ص٣٢٩
١٠	امة السلام بنت القاضي ابي بكر احمد بن كامل بن خلف	٣٩٠هـ	ابيها وغيره	الحسين بن جعفر السلماسي (ت ٤٤٦هـ) وابو يعلى محمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ)	محدثة وصفت بالديانة والفضل	الخطيب البغدادي ، تاريخ،ج١٤ / ص٤٤٣ ، ٧٨٢١
١١	الحوارية بنت عيسى الخراز	عاشت في القرن الرابع الهجري	اخيها	فاطمة بنت احمد السامرية	محدثة روت في تفسير القرآن	الخطيب البغدادي ، تاريخ، ج١٤/ص٤٣٩ ، ٧٨١٢
١٢	سمانة بنت حمدان محمد بن موسى الانبارية	عاشت في القرن الرابع الهجري	ابيها وعن كتب جدها الوضاح بن حسان	ابو القاسم الطبراني (ت٣٦٠هـ) وابو بكر الشافعي(ت ٣٩٢هـ)	محدثة	الخطيب البغدادي ، تاريخ،ج١٤ / ص٤٤١ ، ٧٨١٤ ؛ الذهبي ، ميزان ، ج٧ / ص٤٧٠ ، ١٠٩٧٤ كحالة ، اعلام ،ج٢ / ص٢٦٠

مجال البحر المتوسط الثقافي
جدلية الصراع والوفاق في تأكيد الذات ومحاكاة الآخر

وليد خالد أحمد حسن

الملخص :

يتناول البحث مجال البحر الأبيض المتوسط من الناحية الثقافية كخط فاصل بين ثقافتين مختلفتين . وتأسيسا عليه ، تناول البحث اتجاهين متعارضين في هذه القضية ، احدهما (وفاقي) يتمثل في أطروحات طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) ، وثانيهما (صراعي) يتمثل في أطروحات محمود محمد شاكر , في كتابه (رسالة في الطريق الى ثقافتنا) . وسلك البحث بين هذين الاتجاهين طريقا ثالثا ، ومسلكه هذا اقرب الى واقع التاريخ وأنسب لازدهار الثقافة العربية بصفة عامة .

عندما نتحدث نحن العرب عن الآخر فأنما نعني في المقام الأول أوربا أو العالم الغربي ، ذلك العالم الذي يقع الى الشمال والشمال الغربي من البحر المتوسط في حين نقع نحن الى جنوبه والى الجنوب الشرقي منه . أما علاقتنا بالشرق البعيد أو بأعماق أفريقية أو بأمريكة اللاتينية ، فاننا نسلم بها بطبيعة الحال ولكنها تأتي في المقام الثاني ولا تكاد تسبب لنا قلقا أو مصدرا للتساؤل . وصحيح ان لنا أعماقا جغرافية وثقافية تترامى بعيدا نحو الجنوب والشرق والجنوب الغربي ، وان للعالم الغربي أطرافا نائية الى الشمال والشمال الغربي والغرب البعيد (أمريكة) ، ولكننا على الرغم من هذا الترامي من الجانبين نلتقي مع الآخر في هذه المنطقة التي نسميها البحر المتوسط

. ولقد صدق طه حسين عندما ركز في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) على منطقة الشرق الأدنى وأوربة وعلى المجال الثقافي الذي يتمحور حول البحر المتوسط، فأقلَ ما يمكن أن يقال عن هذا المجال انه ملتقى لثقافتين . واستخدم مفردة (الملتقى) بصفة مؤقتة انتظارا لمزيد من البحث والتحديد.

وحتى نجيب عن السؤال الآتي : هل البحر المتوسط من الناحية الثقافية بحيرة سلام ووئام أو هو ميدان اقتتال أو خط فاصل بين ثقافتين متصارعتين ؟

ذلك هو إذن السؤال الأساسي الذي يشغلنا هنا، وسأعرض بناء على ذلك لمذهبين متعارضين في هذه القضية أحدهما (وفاقي) وثانيهما (صراعي) ، وسأسلك بين هذين المذهبين طريقا ثالثا . وفي رأيي ان المسلك الثالث أقرب الى واقع التاريخ وأنسب لأزدهار الثقافة العربية بصفة عامة .

من السهل في الواقع أن يساء فهم طه حسين فيظن انه من المنادين بإلحاق ليس مصر فحسب وانما بقية الأقطار العربية ولاسيما المتوسطية منها بالعالم الغربي إلحاقا يجعلها تابعة له . وذلك أن بعض أطروحات طه حسين يمكن أن توحي بذلك . ومن هذا أطروحته الشهيرة : ((نريد أن نتصل بأوربة اتصالا يزداد قوة من يوم الى يوم حتى نصبح جزءا منها لفظا ومعنى وحقيقة وشكلا)) . ومن هذا رأيه أن السبيل الى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية هي ((أن نسلك سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب وما يكره وما يحمد منها وما يعاب)).

ولكننا اذا نظرنا الى هذه الاطروحات في سياقها الأوسع تبين لنا انها لا

تعبر إلا عن جانب واحد من موقف طه حسين . يتضح لنــا هــذا اذا قرأنــا (مستقبل الثقافة في مصر) قراءة شاملة فاحصة ، واذا راعينا كما ينبغي سائر مواقف طه حسين في هذا المجال .وسوف نلاحظ عند قراءة الكتــاب قــراءة فاحصة ، انه يقرن بين محاكاة الأوربيين والاستقلال، يقول مــثلا : ((...اذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلي والنفسي الذي لا يكون إلا بالاستقلال العلمــي والأدبي والفني، فنحن نريد وسائله بالطبع . ووسائله ان نــتعلم كمــا يــتعلم الأوربي ثم لنعمل كما يعمل الأوربي ونصرف الحياة كما يصرفها)) .

وطه حسين يكتب أحيانا وكأنه يريد أن يقول أن محاكاة الغير في مجال الثقافة يمكن وينبغي أن تكون محاكاة إبداعية . نرى هذا في بعــض كتاباتــه بالفرنسية . فهو في مقالة عن (غوته والشرق) يثني على الــشاعر الألمــاني العظيم لأنه استطاع في استشراقه أن يحطم أطار الشعر الأوربي وأن يــنظم الشعر في (ديوانه الشرقي) على غرار ما فعل شعراء الفرس والعرب .

غير ان طه حسين يؤكد أيضا ان هذه المحاكاة لم تكن من قبيل التقليد الأعمى وان غوته بث في قصائده (الشرقية) شيئا من نفسه كألماني وأوربي .

وفي مقابل هذا المثال الغربي يضرب طه حسين مثلا آخر في مقالــة فرنسية أخرى عن (بدايات الأدب المسرحي في مصر) . فهو يــروي كيــف ذهب توفيق الحكيم الى فرنسا وعاد بعدد من المخطوطات التي أرسى فيهــا دعائم المسرح المصري . وهو يفترض أن توفيق الحكيم قد جلب هذا الفــن من الغرب فلم يكن معروفا لا في الجاهلية ولا في ظل الإسلام . ويشير الــى ان توفيق الحكيم قد تأثر بــ جيرودو وأناتولي فرانس . بيد ان الحكــيم قــد استطاع ان يجعل من هذا الفن المجلوب إبداعا لا يمكن ان ينــسب إلا اليــه

وجزءا صار لا يتجزأ من الأدب العربي ، فقد جعله مزاجا رائعا من عناصر اسلامية ومصرية وغربية.

وبأمكاننا اذن أن نكمل هذا الدرس فنقول : اذا كان غوته قد استشرق ليؤكد ذاته الألمانية والأوربية ، فقد غرّب توفيق الحكيم ليؤكد ذاته المصرية الاسلامية الشرقية . وتلك اذن هي المحاكاة الابداعية . بها يخرج الفنان عن الأطر الموروثة ويطرح شيئا من ذاته لا لشيء إلا ليعيد اليها الحيوية والنضرة ويؤكدها من جديد .

وما يصدق على الفنان الفرد يصدق على الثقافات . فتجدد الثقافة العربية يعني في نظر طه حسين , تحقيق مزيج أو تآلف رائع بما لدينا وما لدى الآخر الذي هو أوربة . ولابد لهذا التآلف أن يشمل التراث العربي الاسلامي ولاسيما الأدب القديم كما يشمل أحدث ما وصلت اليه أوربة . فنحن كما يقول : ((ندرس الثقافة العربية لأنها تكوّن شخصيتنا، وندرس ثقافة الأوربيين لأنها تكمل شخصيتنا وتعدنا للمستقبل)) .

فإذا أراد أحد أن ينقد هذه الآراء نقدا سديدا ، فعليه أن يوجه سهامه الى ما فيها من نزعة وفاقية ومما قد يقال في هذا الصدد أن هذه الآراء اقرب الى التجريد والمثالية إذ تغلب أوجه الإتفاق مع أوربة ، وذلك مثل اشتراكنا معها في التراث الكلاسيكي . فمن المعروف ان هذا الاشتراك لم يحدث من دون نزاع . وذلك ان العرب لم يتلقوا علوم اليونان بلا مقاومة ، وظلت الحرب معلنة على الفلسفة والفلاسفة حتى أفَلت شمس الحضارة العربية القديمة ودب الجمود في أوصالها . ولم تتلق أوربة هذه العلوم عن العرب من دون أن تحاول تخليصها من الطابع العربي الذي اكتسبته. كذلك لا ينبغي أن

ننسى أن أوربة المعاصرة ليست مجرد امتداد لليونان القديمة .

ومما قد يقال في نقد الوفاقية أنها تسعى الى عقد الصلح بسرعة بلا نقد عميق للحضارة الأوربية . فقد كان طه حسين وغيره من الليبراليين المصريين يعتقدون أن المحتل الأجنبي لابد راحل ، وان رحيله يؤذن لا محالة بفتح صفحة جديدة من الوفاق والمودة مع العالم الغربي . ولم يدركوا يومئذ ان الاستعمار عن طريق الاحتلال ستتلوه صور أخرى من الهيمنة الأجنبية . ولم يعرفوا ما نعرفه اليوم من نقد للاستعمار الجديد والحضارة الصناعية والمجتمعات الاستهلاكية. وكانوا يجهلون أو يتجاهلون ما كان هنالك من نقد ماركسي لتلك الظواهر .

وفي مقابل المذهب الوفاقي نجد تيارا آخر يرسم نموذجا صراعيا محضا لمنطقة البحر المتوسط . ولهذا التيار جذور عريقة وصور متعددة ... وأبرز ممثليه هو محمود محمد شاكر ، وقد اخترته لأننا نجد في كتاباته ولاسيما في كتابه (المتنبي : رسالة في الطريق الى ثقافتنا) أوضح تعبير عن النموذج الصراعي . وليس من قبيل المصادفة أنه يقف على طرف نقيض من طه حسين . ولست أشير فقط الى نقده لـ طه حسين في آخر رسالته وفي كتاباته الأخرى ، وانما اشير وفي المقام الأول الى تلك الحرب الخفية التي يديرها على صفحات الكتاب كله نقضا لمذهب استاذه وخصمه اللدود وطردا لشبحه .

البحر المتوسط على وفق هذا النموذج الصراعي، ميدان قتال أو خط فاصل بين ثقافتين بينهما حرب لا هوادة فيها منذ انتشار الاسلام . فهناك الشمال المسيحي والجنوب الاسلامي . وكل من الثقافتين عالم قائم بذاته ،

فالثقافة في رأي شاكر كلٌ متكامل كالبنيان المرصوص أو النسيج المحكم ، وهي تقوم أساسا على الدين أو ما كان في معنى الدين من أخلاق ، ولها وعاء خاص بها هو لغتها . فليس لأحد لا يدين بدينها ولم يتعلم لغتها وأخلاقها منذ المهد ان يعرفها إلا من خارجها أو أن يحدّث أهلها عنها بخبر صادق أو يريد لهم الخير به . والحرب بين الثقافتين دينية على مر العصور ، ومهما تغيرت الأشكال . فليس هناك فارق جوهري بين (الهمج الهامج) تجمعهم دينية الشمال من اصقاعها الشمالية لتلقي بهم في آتون المعركة وبين الاستعمار أو حملة نابليون أو التبشير أو الاستشراق ، فكلها اسلحة في معركة دينية واحدة . وليس ثمة فارق من حيث المبدأ بين غزو ديار الاسلام ونقل معارفه ، فكلاهما عمل من أعمال الغصب والاستيلاء .

فماذا يمكن أن يقال تعليقا على هذه الرؤية الصراعية ؟

لا يمكن بطبيعة الحال أن ننكر الصراع بين ثقافة الشمال وثقافة الجنوب حقيقة من حقائق التاريخ . ولكن تصور شاكر لتكامل الثقافتين كل في حد ذاتها ولطبيعة الصراع بينهما ،ينطوي على الكثير من التبسيط والتعمية ، فهو لم يتوصل الى هذا التصور إلا بحذف ما لا يروق له من حقائق التاريخ . ومثال ذلك أنه بدأ قصته بانتشار الاسلام ، وله أن يفعل ذلك ، لولا أن هذا الاختيار لا مبرر له في هذه الحالة سوى أنه مناسب لرأيه.

ان الدين هو محور الثقافة وان الحرب بين الثقافتين دينية بالضرورة على الدوام . وقد كان من المناسب له أيضا أن يغفل تطور الثقافتين ، وان يتجاهل الفوارق بين المرحلة الدينية ومرحلة التوسع الاستعماري والرأسمالي في أوربة . وقد نسلم بأن الدين أو ما كان في معنى الدين اساسي في كل

ثقافة ، ولكن هذا التسليم لا ينبغي أن يكون مطلقا . فلم يكن الدين هو الدافع الوحيد أو الأساسي الى الصراع في جميع المراحل ولم يكن ايضا في جميع الأحوال هو القوة المحركة الوحيدة على الصعيد الفكري .

غير ان أهم ما يستبعده شاكر في كتابه السالف الذكر هو انتقال التراث اليوناني الى الثقافة العربية ثم انتقاله منها الى الثقافة الأوربية . فهو يدرك أن العرب قد نقلوا علوم الأوائل ويفترض أنهم أفادوا منها ، كما يدرك أن أوربة أخذت هذه العلوم عن العرب ، ويرى صراحة أنها أفادت منها ، ولكنه يمر على هذه الحقائق مر الكرام ، ويخفي عليه مدلولها في ضجيج المعركة الكبرى وغبارها . ولو أنه توقف عند تلك الحقائق لرأى أنها لا تناسب القصة التي يرويها وأنها تؤدي الى انهيارها .

ان أول نتيجة تترتب على انتقال التراث اليوناني من الشمال الى الجنوب ثم من الجنوب الى الشمال، ان الفاصل بين الثقافتين ليس حاسما كما يبدو أول وهلة. صحيح ان انتقال هذا التراث قد تم في الحالتين في إطار من علاقات القوى والصراع الأقليمي وان طريقة تمثله قد اختلفت على نحو أو آخر الى أخرى وان النتائج التي ترتبت على هذا التمثل قد اختلفت على نحو أو آخر بين الحالتين ، ولكن تبادل هذا التراث واختلاف الثقافتين في تلقيه واستيعابه يدل على أن لهما تاريخا مشتركا ومصيرا مشتركا في بعض الجوانب . فليس من الممكن عرض تطور احدى الثقافتين دون التطرق الى تطور الاخرى . وما اختلافهما في تلقي التراث اليوناني وتمثله الا حلقتان في قصة واحدة ، هي قصة النزاع الذي يفرقهما ويجمع بينهما .

والنتيجة الثانية التي تستخلص من دراسة انتقال التراث اليوناني هي ان

تمثيل هذا التراث لم يتحقق في الحالتين من دون ترتيب مقومات الثقافة المتلقية ترتيبا جديدا . وهو ما يعني بدوره اختلال التكامل على نحو أو آخر لفترة تطول أو تقصر في نطاق هذه الثقافة . وذلك ان نقل علوم اليونان الى الثقافة الاسلامية كان يعني افساح المجال داخل هذه الثقافة لعامل جديد أو قوة دافعة جديدة ، هي العقل . وبعد أن كان الايمان سيدا لا منازع له وكان بهذا المعنى هو أساس الثقافة ومحور جميع العلوم فيها ، ادخل عامل العقل وأصبحت المشكلة الأساسية منذ ذلك الحين هي تحديد مكانة العامل الجديد بالنسبة للدين . وقد حدث عندئذ ذلك التصدع بين النقل والعقل . ودارت المعركة المعروفة التي اختلفت فيها المذاهب ورجحت فيها كفة هذا الطرف أو ذاك حتى جاء الغزالي وانتصرت آراؤه في نهاية المطاف ، وعندئذ عاد الى الثقافة تكامل أو توازن من نوع جديد . وهو تكامل جديد لأنه يختلف عن التكامل الأول . فقد كان هذا بسيطا خاليا من التعقيد والقسر ، في حين كان التوازن الذي حققه الغزالي يقوم على إلجام الفلسفة وكبحها وقمعها ، ولنا أن نقرأ تصنيف الغزالي للعلوم الفلسفية تصفية عنيفة فيرد بعضها الى أدوات للدين ويطرد بعضها شر طردة .

ان التكامل الذي تناوله شاكر وتحدث عنه هو إذن ضرب من الأساطير . وتكامل الثقافة حول الدين ليس في أفضل الأحوال إلا مرحلة مؤقتة ولحظة عابرة في تاريخها ، وهو نوع من التوازن الدقيق الذي لا يلبث أن يختل ، ومثله مثل إيمان العجائز الذي يقال، ان عمر بن الخطاب (رض) دعا الله ان يوهبه . وهو اذن مثل أعلى لا يتحقق في الواقع الا على وجه التقريب وللحظة متلاشية . وما أن يحاول أهل دين ما أن يوقفوا بينه وبين

أشياء أخرى مثل العقل أو مقتضيات التطور أو الواقع أو الحضارة حتى تكون المحاولة دليلا على زوال لحظة البساطة الأولى وتشقق البناء المرصوص أو النسيج المحكم .

لعلنا أقرب الى الصدق عندما نتخذ موقفا وسطا بين مذهب الوفاق ومذهب الصراع، فنقول أن العلاقة بين ثقافة الشمال وثقافة الجنوب علاقة التحام ونزاع عندما يعني هذا تداخل المواقع والتنافس على أرض مشتركة . فبين الثقافتين تراث مشترك ولكن هذا المجال المشترك هو نفسه موضوع نزاع بينهما . وذلك أن علوم اليونان لم تنتقل بين الثقافتين إلا في ظل التوسع السياسي والجغرافي والثقافي من جانب هذه الثقافة أو تلك ، وهو لم يستقبل في كلتا الحالتين من دون أن تحاول الثقافة المتلقية أن تحوره على وفق متطلباتها وتأكيداتها لذاتها .

موقف وسط ولكنه يجمع بين المذهبين المذكورين ويتجاوزهما ، فهو يبرز تعقيد الواقع الذي اختزله كل منهما واقتصر على جانب واحد منه . فطه حسين على سبيل المثال يركز على اتفاق الثقافتين ويهوّن من أوجه الخلاف بينهما . صحيح انه يقترب من الحقيقة عندما يضرب المثل بـ غوته وتوفيق الحكيم كأديبين حاول كل منهما أن يحاكي أهل الثقافة المقابلة لثقافته لكي يؤكد ذاتيته . ولكن طه حسين لا يكاد يرى انقطاعا أو تضاربا بين لحظة المحاكاة ولحظة الابداع ، ولا يكاد يدرك أن تأكيد الذات يعني بالضرورة مقاومة واعية أو غير واعية لأساليب الغير . وهو على الصعيد النظري العام يكاد ينتهي الى ان أوجه الخلاف بين الثقافة الاسلامية والثقافة الأوربية عارضة أو ثانوية . أو لنقل بالأحرى أنه يذيب هذه الفوارق ويبددها اذ يرى

ان الثقافتين ترتدان بالتحليل الى مقومات واحدة متماثلة. والأمر هنا شبيه بمن يسقط الخلاف بين الأديان السماوية الثلاث لأنها تتفق منطقيا على مبدأ واحد هو التوحيد ،وينسى ان الدين اللاحق في هذه السلسلة يرمي الى الأخذ مما تقدمه وتطويره .

أما شاكر ، فهو يبسط العلاقات المعقدة بين الثقافتين عندما يفترض ان تصارعهما يعني انفصال كل منهما وتكامله في حد ذاته . وهو يقترب من الصدق عندما يرى كلتا الثقافتين قد أخذت احداهما عن الأخرى وعندما يبرز الدافع في كلتا الحالتين الى الاستحواذ على ما لدى الطرف الآخر . ولكنه لا يكاد يشير الى هذه الحقائق حتى تغيب عنه دلالاتها . فعملية الأخذ والاستحواذ بين هذين الطرفين المتنازعين تعني بالضرورة اشتراكهما في عناصر واحدة -هي موضوع النزاع وتداخلهما- كما تعني أن أخذ هذه العناصر قد أدى في الحالتين الى اختلال في تكامل الثقافة المتلقية ، وان تمثيلها لم يكتمل إلا وقد تحولت الثقافة عن طبيعتها الأولى .

وليس من قبيل المصادفة ان شاكر قد تجاهل هذه الحقائق التاريخية . فهو يستبعد التطور والتاريخ منذ البداية ، ويتصور الثقافة الاسلامية كنظام مغلق من الأقوال أو النصوص التي لا تلتمس جذورها إلا في أنفس العرب . والمنهج الذي يقترحه منذ البداية منهج بياني يقتضي اجراء التذوق على كل ما انتجه العرب من كلام منظوم أو منثور في أي علم من العلوم بوصفه ((أبانة منهم عن خبايا أنفسهم بلغتهم)) . والبحث بهذا المعنى دراسة لغوية تنصب على كلام العرب لتقصي معانيه ودلالاته في أنفسهم من دون الرجوع الى واقع التاريخ . وذلك تبدو الثقافة نسيجا واحدا وان تعددت خيوطه

وتنوعت فكأنها الشبكة التي تخرج من جوف العنكبوت .

ومن اللافت للنظر أن شاكر يكتب كما لو كان ابن خلدون لم يوجد أو كما لو كان ينتمي الى ثقافة اخرى غير الثقافة الاسلامية . فـ شاكر لا يذكر ابن خلدون أصلا . ويتمسك بمنهج في البحث رفضه هذا المفكر الاسلامي وأثبت قصوره ، وذلك ان ابن خلدون قد رأى على وجه التحديد أنه لا ينبغي ان ندرس التاريخ كمجموعة من الأقوال والأخبار التي تمحص بالرجوع الى قائليها ورواتها والى اخلاق هؤلاء من دون الإشارة الى الواقع . وأنه لمن حسن الحظ أن ابن خلدون يصلح مثالا جيدا لتوضيح ما أعنيه بالاشتباك مع الثقافة الأوربية . وذلك ان مبدأ الواقع هذا مبدأ يوناني اصلا , وان كان ابن خلدون قد جعله عربيا .

لقد عاش ابن خلدون كما نعلم عند ملتقى الثقافتين ، وفي لحظة حاسمة من تاريخ الالتحام بينهما . وكان يؤلف تاريخه وهو يدرك بوضوح ان العالم الاسلامي يتصدع ويضمحل في حين أن ثقافة الشمال تنهض وتزدهر : غير ان ابن خلدون لم يقنع بلملمة أطراف ثقافته ، وبالتدثر بنسيجها . ولقد يبدو ان تأسيسه عندئذ لذلك العلم الجديد – علم العمران أو علم التاريخ – كان بمثابة محاولة للاشتباك مع الثقافة اليونانية في معركة أخيرة مثمرة . ولا ينبغي هنا أن ننخدع بنقد ابن خلدون للفلسفة والفلاسفة ، فهذا العداء الصريح يخفي جدلا عميقا خصبا مع أرسطو على وجه التحديد . وكانت ثمرة الجدل تقرير مبدأ الواقع وإعادة تفسيره ووضع حجر الأساس لعلم التاريخ .

الخطوة الأولى في بناء هذا العلم هي نقد ابن خلدون للسُنة التي اتبعها أسلافه في التاريخ . فقد كانوا يكتفون بتمحيص الأقوال والأخبار عن طريق

الجرح والتعديل أو نقد أخلاق الرواة ، ورأى ابن خلدون ان الأولوية ينبغي أن تعطى لتمحيص الأخبار بالرجوع الى ((طبائع الأشياء)) أو عن طريق التأكد من تطابقها مع ((الواقعات)) أو ((طبائع العمران وأحواله)) . فاذا أمعنا النظر في هذه الخطوة لاحظنا أولا أنه اعتمد على المعلم الأول في تقرير مبدأ الواقع . وذلك أن فكرة طبائع الأشياء أو الأشياء ذات الماهيات والأعراض التي تتجاوز نطاق الأقوال والقائلين وتشكل المرجع الأساسي في التحقق من الصدق والكذب فكرة ارستطاليسية ما في ذلك شك.

غير اننا نلاحظ من جهة أخرى ان ابن خلدون لم يأخذ مبدأ الواقع عن ارسطو إلا وقد صرفه عن وجهته الأصلية وأعاد تفسيره بما يتفق ومتطلبات المعرفة التاريخية . فالواقع في نظر الفيلسوف اليوناني يتكون أساسا من ((جواهر)) اي افراد – مثل سقراط او هذا القلم الذي اكتب به – له ماهيات ((مثل انسانية سقراط) وأعراض (مثل سواد القلم) . ولا مكان في هذا التصور للمعرفة التاريخية . فالعلم الحقيقي في نظر أرسطو هو تناول الأفراد بالحد أو التعريف أي ادراك ما هو كلي فيها أو ماهيتها مجردة خالصة من شوائب الفردية وحدود المكان والزمان . وليس من قبيل المصادفة ان ارسطو كان يعتقد ان التاريخ – بما انه يعني بما هو فردي – أدنى مرتبة من الشعر ، أما الواقع كما فسره ابن خلدون فهو يتكون أساسا من تجمعات بشرية – بدوية وحضرية – تجري عليه أحوال وأحداث تتصل فيما بينها برابطة العلة والمعلول وتخضع للقوانين السببية ، وبذلك التفسير الجديد للواقع أصبح التاريخ ممكنا .

ومن الواضح ان ابن خلدون قد أحدث تصدعا في الثقافة الاسلامية أو

في التصور التقليدي لها عندما ادخل – مستعينا بارسطو – مبدأ الواقع الذي يتجاوز الأقوال وانفس القوانين وأخلاقهم . غير ان ابن خلدون لم يدفع ثقافته الى ما وراء حدودها المألوفة ولم يربطها بثقافة اليونان إلا وقد ميزها عنها وأحرز لها تفوقا عليها . وذلك اعادة تفسير الواقع بحيث يصبح نظاما من الوقائع التي تخضع للقوانين السببية, يعني ان الثقافة الاسلامية قد تجاوزت ارسطو والاستطاليسية وعالم العصور الوسطى وسبقت بهذا المعنى أوربة الى العصر الحديث .

ويحق لنا بناءا على هذه الحالة النموذجية ان نستخلص بعض النتائج العامة . وأولى هذه النتائج تتعلق بوحدة الثقافة الاسلامية . فالدين أساسي في هذه الثقافة ولكن هذا لا يعني ان الثقافة تنتظم على هذا الأساس كالبناء المرصوص أو النسق الفلسفي أو النسيج المحكم أو الجهاز العضوي . وتدل دراسة التاريخ على ان هذه الثقافة قد تعرضت في تاريخها لهزات وانقلابات وتحولات جذرية ، وانها تطورت واستقبلت أو استنبطت مبادئ اخرى كمبدأ العقل أو مبدأ الواقع .

وليس هنالك من وحدة أو تكامل أو منطق إلا ما أمكن ملاحظته في إطار هذا التطور من علاقات متغيرة غير متجانسة وغير متسقة بين مقومات هذه الثقافة سواء أكانت اصلية أم مجلوبة . وليس صحيحا ان إزالة أي خيط من هذا النسيج يهدد بتفككه أو ان استبعاد أي حجر من البناء يعني تداعيه بأكمله . فتطور الثقافة – أية ثقافة – أو حياتها عملية مستمرة من الحذف والاضافة أو الهدم والبناء .

وتتعلق النتيجة العامة الثانية بثقافة البحر المتوسط أو بالثقافة العالمية أو

الانسانية . فقد أحاطت بهذا البحر وما زالت تحيط به ثقافات متعددة . وليس هناك من وحدة تجمع بين هذه الثقافات أو من تراث مشترك بينها إلا ما كان ثمرة لتلاحمها وتشابكها عبر التاريخ . وليس من الممكن أن نعزل في هذا التعدد نواة صلبة ثابتة لنطلق عليها اسم الثقافة الانسانية أو العالمية . ولكن هناك تراثا فضفاضا متعدد الجوانب والمراحل بحسب تعدد الثقافات التي تداولت هذا التراث وتنازعته عبر التاريخ . فقد جرت سُنة التطور على ان يؤول التراث المذكور الى الثقافة الغالبة فتتناوله بالحذف والاضافة وتعيد تنظيم مقوماته وتطبعه لفترة بطابعها . وليس من الممكن ان نصف وحدة هذا التراث من دون ان نروي قصة الجدل والنزاع الذي دار وما زال يدور بين الثقافات المذكورة . وإنا لنقترب من الصدق اذا شبهنا هذه الثقافات بالدوائر المتقاطعة . وتزداد الدقة اذا نحن أضفنا الى هذا التشبيه الهندسي بعدا زمنيا ديناميكيا عن هذه الدوائر انها دوائر نفوذ .

أما النتيجة العامة الثالثة فتتعلق بالموقف الذي ينبغي أن نتخذه اليوم من الثقافة الغربية . وهو موضوع معقد ويستحق دراسة قائمة بذاتها . ولكننا قد نقول بصفة مؤقتة وعلى سبيل الاختصار انه لا مفر في هذه المرحلة من أن نشتبك مع الثقافة الغالبة فنتعلم عنها وننازعها بقدر الامكان فيما لديها أو فيما آل اليها . ويبدو ان ابن خلدون هو خير مثال يحتذى في هذا الصدد . ويقتضي هذا ان نتخذ من الثقافة الغربية موقفا ايجابيا فنشتبك معها في بناء العلوم والحضارة ، فذلك هو الإطار الوحيد الذي يحدد لنا ماذا نأخذ وماذا ندع من التراث وماذا نأخذ وماذا ندع من الغرب بلا تعسف أو تعصب أو تلفيق . ويترتب على ذلك ، ان جميع الجهود التي تبذل اليوم لبحث مشكلة التراث

والمعاصرة أو الأصالة والتجديد ، تبقى علامة على العقم والتخلف طالما اقتصرت على المستوى النظري البحت ولم تنخرط في عملية البناء والتزمت بمقتضياتها .

وينبغي أن نتذكر في هذا الصدد أن ابن خلدون لم يكن يعنيه في المقام الأول أن يكون أصيلا أو معاصرا أو أن يجمع بين اسلافه وارسطو ، وانما اهتم بتقصي الشروط اللازمة لبناء علم التاريخ . كيف يصبح علم التاريخ ممكنا؟ ذلك هو السؤال الذي حدد لأبن خلدون اختياراته . ولقد كانت معاناة الضرورات التي تمليها عملية البناء هي طريقه الى الحرية والإبداع . وما أشبهنا اذ نحاول حل المشكلة على المستوى النظري البحت بمن يتساءل عن أي المذاهب يتبع وعن سبل الإبداع في هذا الفن من دون أن يعاني ضروراته ومن دون أن يلمس هنالك منافذ الحرية . وليس لأحد لم يتعلم قواعد اللعب ولم يتمرس بها أن يثور عليها .

* **العبارات المقوسة نقلاً عن :**

١. طه حسين ـــ مستقبل الثقافة في مـــصر، ٢ج، مكتبـــة المعـــارف ، القاهرة ، ١٩٣٨.

٢. طه حسين ـــ من الشاطئ الآخر، كتابات طه حسين الفرنسية ، جمعها وترجمها وعلق عليها عبد الرشيد الصادق المحمـــودي، بيـــروت ، ١٩٩٠.

٣. محمود محمد شاكر – المتنبي ، رسالة في الطريـــق الـــى ثقافتنـــا، الناشر:– مطبعة المدني (القاهرة) ودار المدني (جدة) ، ١٩٨٧.

الإدغام عند أبن الجوزي في زاد المسير

الدكتور عادل محمد عبد الرحمن
جامعة بغداد / كلية الإدارة والاقتصاد

الدكتور احمد هاشم احمد
جامعة تكريت/ كلية التربية سامراء

الملخص :

يهدف الى المواضيع الآتية : التمهيد : حياة ابن الجرزي ، ودرست فيه اسمه ونسبه ولقبه وكنيته ومولده ووفاته ومؤلفاته في اللغة العربية .

وقسمت البحث الى ثلاثة فصول : الأول : درست فيه ادغام المتقاربين . في كلمة واحدة ، وكلمتين ، والفصل الثاني درست فيه ادغام المتماثلين في كلمة واحدة ، وكلمتين ، والفصل الثالث : درست فيه ادغام المتجانسين في كلمة واحدة ، وكلمتين ، واخيرا ذكرت أهم النتائج في الخاتمة .

وقائمة بالمصادر المستخدمة في البحث .

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد...

تعّد الدراسات القرآنية اللغوية واحدة من الدراسات التي أغنت علوم اللغة بالكثير من الفوائد ، فضلا عن حفاظها على الكثير من المسائل والخلافات والشواهد التي ضاعت بضياع الكثير من مصنفات اللغة والأدب .

اعتنى علماء التفسير باللغة عناية كبيرة فلا يخلو تفسير من المسائل اللغوية سواء أكانت النحوية،أم الصرفية، أم الصوتية ، أم المعجمية ، وكان من بين هذه الكتب كتاب (زاد المسير في علم التفسير) لآبن الجوزي .

وقع اختيارنا على هذا الموضوع للرابطة الوثيقة التي تربطني بهذا الكتاب، فمنذ أن كنا في مرحلة الماجستير وإلى هذا اليوم ونحن منشغلون بالدراسات القرآنية بحثا وتحقيقا ، وكان من الكتب التي لا تفارقنا في حلّنا وترحالنا كتاب (زاد المسير) الذي وجدنا فيه ضالتنا ، فما إن نظرنا في صفحاته حتى أخذنا الوقت وسرحنا في جنان اللغة وروعة الأسلوب ، فنقول : لم نجد كتاباً استمتعنا به مثل كتاب (زاد المسير) ، وعليه عقدنا العزم على دراسة جانب من جوانب اللغة فيه ، وكانت هذه الفكرة تراودنا منذ زمن حتى قبل حصولنا على الدكتوراه ، ولكننا أشفقنا على أنفسنا من الولوج في بحره ، فقررنا أن لا نقدم على هذه المهمة حتى نجد أنفسنا على قدر المسؤولية وبحجم من يخوض في بحره ، فيها نحن نقدم على هذه المهمة بعد أن مضينا مدة طويلة في البحث والتحقيق ونرى أن الأرض التي نقف عليها أقوى منها قبل سنين، فلما بدأنا بالبحث عن موضوع أو دراسة وقفنا محتارين لغزارة المادة التي يحتويها ، وبعد توفيق الله عز وجل وقع اختيارنا على موضوع (الإدغام) ؛ لأنه من الموضوعات الصوتية التي اختلف القراء فيها كثيرا ، فكان عنوان بحثنا :

" الإدغام عند ابن الجوزي في زاد المسير "

وبعد توفيق الله سبحانه وتعالى استطعنا جرد المادة العلمية من الكتاب فوقفنا على دقائق مسائل الإدغام . وبعد تصنيف المادة العلمية كانت طبيعة

البحث على الأقسام الآتية :-

تمهيد : تناولنا فيه (ابن الجوزي وزاد المسير) ، فدرسنا فيــه حيــاة ابــن الجوزي من خلال : اسمه ونسبه ، وألقابــه ، ومولــده ووفاتــه ، ونــشأته وصفاته ، ومكانته العلمية ، وعلمه باللغة ، وآثاره في علمي اللغة والتفسير ، وبعد ذلك تكلمنا بشيء موجز على أقوال العلماء في كتاب زاد المسير .

الدراسة : وتناولنا فيها مجموعة من الأمور الخاصة بالإدغام ، فدرسنا : تعريفه ، والغرض من الإدغام عند ابن الجوزي، وكان في عدة مباحث :

المبحث الأول : إدغام المتماثلين ، ودرسنا فيه : الإدغام فــي كلمــة واحدة ، والإدغام في كلمتين .

المبحث الثاني : إدغام المتجانسين ، ودرسنا فيه : الإدغام فــي كلمــة واحدة ، والإدغام في كلمتين.

المبحث الثالث : إدغام المتقاربين ، ودرسنا فيه : الإدغام فــي كلمــة واحدة ، والإدغام في كلمتين ثم ختمنا البحث خاتمة ذكرنا فيها أهــم النتــائج التي توصلنا إليها في البحث .

وفي الختام نتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى كل من ســاعدنا علــى إنجاز هذا البحث ...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

ابن الجوزي وزاد المسير :

أسمه ونسبه :

هو : جمال الدين ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله ابن عبد الله بن حمّادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبـد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ﷺ)[1] .

من خلال هذا النسب نرى أنه يرجع إلى الفرع الصالح لخليفة رسـول الله محمد (ﷺ) فرع أبي بكر الصديق (ﷺ) ، وهو ما أشار إليه صراحةً فـي أحد مصنفاته ، فقال : ((يابني وأعلم أننا من أولاد أبي بكر الـصديق (ﷺ) وأبونا القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بـن محمـد بـن أبـي بكر (ﷺ))) .[2]

ألقابه :

ذكرت كتب التراجم مجموعة من الألقاب ، منها : القرشي ، والبكري والبغدادي ، والحنبلي ، والواعظ[3] ، غير أن ما أشتهر فيه هو (الجوزيّ) ، وقد ذكر أن نسبه هذا يرجع إلى جده (جعفـر الجـوزي) ، وقـد اختلـف المؤرخون حول سبب هذه التسمية ، فقيل : إنها نـسبة إلـى فرضـة نهـر بالبـصرة[4] ، وقيـل نـسبة إلـى محلـة بمدينـة البـصرة هـي

---

[1] ينظر : سير اعلام النبلاء ١١ / ٣٦٥ .

[2] لفتة الكبد الى نصيحة الولد ٥٧ .

[3] ينظر : سير اعلام النبلاء ١١ / ٣٦٥ .

[4] ينظر : البداية والنهاية ١٣ / ٢٨ .

(محلة الجوز)[٥] ، وقيل : نسبة إلى مشرعة الجوز ، وهي محلة من محال مدينة بغداد[٦] ، وقيل : نسبة إلى جد الأسرة الذي سكن في دار بواسط فيها شجرة جوز لم يكن بواسط سواها[٧] .

مولده ووفاته :

ذكر المؤرخون أنه ولد في (درب حبيب) في بغداد ، ولكن اختلفوا في تاريخ ولادته فقيل سنة (٥٠٨هـ) ، وقيل (٥٠٩هـ) ، وقيل (٥١٠ هـ)[٨].

أما وفاته فقد أجمعوا على أنها ليلة الجمعة ثاني عشر من شهر رمضان سنة (٥٩٧ هـ)[٩] .

نشأته وصفاته :

نشأ ابن الجوزي يتيماً على العفاف والصلاح ، فقد توفي والده وعمره ثلاث سنين ، فكفلته أمه وعمته ، إلا أن عمته اعتنت به منذ طفولته ، ولما ترعرع حملته إلى مسجد أبي الفضل بن ثامر ، فسمع فيه الحديث[١٠] .

---

[٥] ينظر : الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ٤٠٠ .

[٦] ينظر : التاريخ ، لابن الوردي ٢ / ١٧٩ .

[٧] ينظر : الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ٤٠٠ .

[٨] ينظر : الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ٤٠٠ ، ووفيات الاعيان ٣/١٤٢ .

[٩] ينظر : التكملة لوفيات النقلة ١/٣٩٤ ، ووفيات الاعيان ٣ /١٤٢ ، النجوم الزاهرة ٦/١٧٤ ــ ١٧٥ ومرآة الزمان ٨/ ٤٨١ .

[١٠] ينظر : سير اعلام النبلاء ٢١/٣٦٧ ــ ٣٦٨، والذيل على طبقات الحنابلة ١/٤٠٠ ــ ٤٠١ ، والبداية ولنهاية ١٣ / ٢٨ .

وّجه ابن الجوزي منذ صغره توجيها علميا ، فنشأ عالماً فقيها مصنفا ، حتى قيل عنه : ((شيخ وقته وإمام عصره))[١١]، وقيل عنه أيضا :((علامة عصره ، وإمام وقته في الحديث ، وصناعة الوعظ))[١٢] .

أثر هذا الارتباط بالمسجد في شخصية ابن الجوزي تـأثيرا كبيـرا ، فانقطع إلى الدرس وحضر مجالس العلم ، وترك اللهو واللعب مـع أقرانـه وابناء سنه ، فكان لا يخرج من بيته إلا للجمعة[١٣] . وقد ذكر شـهادة عـن نفسه في قوله: ((ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد مـا هـو عندي أحلى من العسل ، لأجل ما أطلب وأرجو ، كنت في زمان الصبا آخذا معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى ، فـلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين همتـي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثـرة سـماعي لحديث الرسول (ﷺ) وأحواله وآدابه ، وأحوال أصحابه وتابعيهم ، فـصرت في معرفة طريقة كابن أجود ، وأثمر ذلك عندي من المعاملة مـا لا يـدري بالعلم ، حتى إنني أذكر في زمان الصبوة ووقت الظلمة والعزبة قدرتي على أشياء كانت تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال ، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله (سبحانه وتعالى))[١٤] .

---

[١١] ينظر : الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ٣٩٩ .

[١٢] وفيات الأعيان ٣/١٤٠ .

[١٣] ينظر : البداية والنهاية ١٣ / ٢٩ ، ومرآة الزمان ٨/ ٤٨٢ .

[١٤] صيد الخواطر ٢١٦ .

اتصف ابن الجوزي بعدة صفات ، منها سرعة بديهيته ، وسرعة بادرته ، ورغبته الأكيدة في طلب العلم وصبره على تحمل الشدائد من أجله[15] .

مكانته العلمية :

تبوأ ابن الجوزي مكانة مرموقة لدى العلماء عامة ، وفي عصره خاصة فضلاً عن المكانة العظيمة التي احتلتها كتبه ، حتى أثنى عليها القريب والبعيد[16] . ومن صور مكانته وجلالة قدره أن الملوك والأمراء كانوا يحضرونه مجالسهم[17] .

علمه باللغة :

برع ابن الجوزي بالعلوم الإسلامية ، فكانت له اليد الطولى فيها درسا وتأليفا ، ومن بين هذه العلوم علوم اللغة العربية ، فقد أخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي[18] ، فصنف فيها وفي الأدب العديد من المصنفات ، فضلا عن أنه كان رائق العبارة ناصع الأسلوب قادرا على التعبيرات النادرة والتصوير الدقيق[19] ، خطيبا فصيحا بليغا .

---

(15) ينظر : نزهة الأعين النواظر ٢٣ .

(16) ينظر : الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ٤١٦ ، وشذرات الذهب ٢٩/٢ ، وابن الجوزي ٣٢ ــ ٣٣ .

(17) ينظر سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٧٠ .

(18) ينظر : مرآة الزمان ٨ / ٤٨١ ، والذيل على طبقات الحنابلة ١ / ٤٠٢ ، والبداية والنهاية ١٣ / ٢٩ .

(19) ابن الجوزي ومقاماته الادبية ٤١ .

آثاره في علمي اللغة والتفسير:

ترك ابن الجوزي مجموعة من الآثار في مختلف العلوم ، ولما كان حديثنا عن اللغة والقرآن ، سيقتصر حديثنا على مؤلفاته في التفسير واللغة بموجب :

١- تذكرة الاديب في علم الغريب .

٢- تيسير البيان في تفسير القران .

٣- تقويم اللسان .

٤- كتاب زاد المسير في علم التفسير .

٥- السبعة في القراءات السبع .

٦- كتاب المجتبى والمغني في علم التفسير .

٧- كتاب المعين .

٨- ملح الاعاريب .

٩- ناسخ القران ونسوخه ..

١٠- نزهة اهل الادب .

١١- الوجوه والنظائر .

وغيرها[٢٠] .

كتابه زاد المسير

وهو الكتاب الذي اخترناه للدراسة ، وهو من الكتب القيمة المعنية باللغة ، وقد ذكر ابن الجوزي هذه القيمة في قوله : ((وما ترك (المغني) و (زاد المسير) لك حاجة في شيء من التفسير))[٢١] .

---

[٢٠] ينظر : الذيل على طبقات الحنابلة ١ / ٤٢٠ .

[٢١] لفتة الكبد ٥٦ .

وصف شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الكتاب بأنه من خير كتب التفسير القريبة من الكتاب والسنة[٢٢] .

وعَدّ جماعة من المحدثين هذا الكتاب من أبرز المؤلفات المعنية بالتفسير واللغة وله عناية بعلوم القرآن الكريم[٢٣] .

الادغام عند ابن الجوزي في زاد المسير

تعريفه :

الإدغام لغة هو إدخال الشيء في الشيء ، ويقال : (أدغم الفرس اللجام) إذا أدخله في فيه[٢٤] ، ومنه قول ساعدة بن جؤية[٢٥] :

بِمُقْرَباتٍ بأَيْدِيهِمْ أَعِنَّتُها خُصٍ إذا فَزِعُوا أُدْغِمْنَ في اَللُجَمِ

أي: أُدْخِلَتَ رؤوسُهُنَّ في أللجَمِ[٢٦] .

واصطلاحا : إدخالُ حروف واختلاطُهُما ببعضٍ بحيثُ يصبحُ الحرفان كحرف واحدٍ مشدّدٍ[٢٧] . يقال : (أدغَمْتُ الحرفَ وآدَّغْمتُهُ)[٢٨] مِن خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي نجد اتفاقا في المضمون ، وقد اختلف في

---

[٢٢] ينظر : التفسير الكبير ٣/٢٥٤ ــ ٢٥٧ .

[٢٣] ابن الجوزي ٣٢ .

[٢٤] ينظر : لسان العرب (دغم) .

[٢٥] ورد البيت في : ديوان الهذليين ٢٠٣/١ .

[٢٦] المصدر نفسه .

[٢٧] ينظر : شرح الشافية ٣/ ٢٣٥، والممتع في التصريف ٦٣١/٢، والمقتضب ٣٣٣/١ ، وأحكام تجويد القرآن ٤٧ .

[٢٨] لسان العرب (دغم) .

أيهما مأخوذٌ من الآخر ، فقيل : إدغام الحروف مأخوذ من إدغام اللجام في الفرس ، وقيل العكس ، ولكن النتيجة أن لفظ الإدغام مصطلح نحويّ[٢٩] .

يُعَدّ سيبويه أول النحويين ذكرا للادغام ، فقد قال : ((والإدغام : انما يدخلُ فيه الأول في الآخر والآخرُ على حاله ، ويُقْلَبُ الأول فيدخل في الآخر حتى يصير هو والآخر في موضع واحد ، نحو (قد تّركتك) ويكون الآخر على حاله))[٣٠] .

الغرض منه :

اعتاد العرب على استعمال الظواهر الصوتية في كلامهم بقيم مقصودة وأسباب واضحة ، فلا ينطق العربي اعتباطا أو من غير قصد ، ولهذا كان للإدغام في كلامهم غرض وهو الخفة في النطق ، وتقريب بعض الأصوات من بعض ، لتتناسق وتتماشى من حيث الجهر ، والهمس ، والشدة ، والرخاوة وغيرها ، ((لأن شرط تأثير الأصوات المتجاورة بعضها ببعض أن تكون متشابهة في المخرج أو الصفة ، فإذا اجتمع صوتان متماثلان كل المماثلة أو بعضها ترتب على هذا أن يؤثر أحد الصوتين في الآخر تأثيرا تختلف نسبته تبعا للظروف اللغوية الخاصة بلغة من اللغات))[٣١] .

إذا فالغرض من الإدغام ((التخلص من الثقل الحاصل في نطق الحرفين المتماثلين))[٣٢] وفيه يقول سيبويه : ((يثقل عليهم أن يستعملوا

---

[٢٩] المصدر نفسه .

[٣٠] الكتاب ٤/ ١٠٤ / ١٠٥ .

[٣١] في اللهجات العربية ٧٠ ، والأصوات اللغوية ١٧٨ .

[٣٢] معجم الصوتيات ، الدكتور رشيد العبيدي ٢٦ .

ألسنتهم من موضع واحد ثم يعودوا له ، فلّما صار ذلك تَعبا عليه أن يداركوا في موضع واحد ولا تكون مُهلة ، كرهوه وأدغموا ، لتكون رفقــة واحــدة ، وكان أخفَّ على ألسنتهم))[٣٣] .

الإدغام عند ابن الجوزي :

خطّ ابن الجوزي لنفسه خطا واحدا في دراسة الإدغام ، فقد عرض له من خلال ذكر القراءات القرآنية واختلاف القراء فيما بيــنهم بــين الإدغــام والإظهار ، ومن خلال استقصاء النصوص الواردة عنده نجده قــد اســتوفى أقسام الإدغام .

المبحث الأول : إدغام المتماثلين :

يعدُّ إدغام المتماثلين أحد أنواع الإدغام : وأقسامه ، وقد عرّفه علمــاء اللغة بإتفاق الحرفين مخرجا وصفة ، كإدغام الــدالين فــي قولــك : (قَــد دَّخلُوا) ، وقد يكون في كلمتين ، كالمثال السابق ، أو فــي كلمــة واجــدة ، كقولك : (يكرههن) و (يدرككم)[٣٤] .

ذكر ابن الجوزي مجموعة من الأمثلة على هذا النوع من الإدغام فــي مواضع متفرقة من كتابه ، والمطلع على نصوصه يجده يذكر أنــواع هــذا الإدغام في موضعه ، ويمكن تفصيل القول فيه على النحو الآتي :

الإدغام في كلمة واحدة :

إذا حصل إدغام المتماثلين في كلمة واحدة يسمى (إدغاما كبيــرا) ، وقد ورد هذا الإدغام في قراءة الجماعة لقوله تعالى : (قالوا يا أبانا مالك لا

---

[٣٣] الكتاب ٤/٤١٧ .

[٣٤] ينظر : الممتع في التصريف ٢/٦٦٢ ، وأحكام تجويد القرآن ٤٦ .

تأمنَّا على يوسف)[٣٥] . : (تأمَنّا) بإدغام النونين .

قال ابن الجوزي : ((قرأ الجماعة : (تأمَنَّا) بفتح الميم وإدغام النون الأولى في الثانية ، والإشارة إلى إعراب النون المدغمة بالضم))[٣٦] .

الواضح من نص ابن الجوزي أن قراءة الجماعة جاءت موافقة لقانون التخفيف الصوتي من خلال إجراء الإدغام على الحرفين المتماثّين ، وهذا مخالف لما روي عن ابن مقسم أنه قرأ (تأمنا) بالإظهار[٣٧] . وإنما جرى الإدغام في هذه اللفظة ، لأن الأصل (تأمننا) ثم أُدغمت النون الأولى ، وبقي الإشمام في الميم ليدل على ضمة النون الأولى[٣٨] .

لم يحاول ابن الجوزي الإشارة إلى القسم الخاص بهذا النوع من الإدغام ، فلم يذكر أنه من إدغام المثلين ، أو من الإدغام الكبير ، وإنما اكتفى بالإشارة إلى الأوجه الجائزة في الآية .

ومن هذا النوع من الإدغام قوله تعالى : (ولمّا فتحوا مَتَاعَهُم وَجَدوا بضاعتهم ردّت إليهم)[٣٩] ، بإدغام الدالين في (ردّت) .

ذكر ابن الجوزي حكم الإدغام في هذه الآية نقلا عن الزجاج ، فقال : ((قال الزجاج : الأصل (رُدِدَتْ) فأُدْغِمَتْ الدال الأولى في الثانية ، وبقيت الباء مضمومة))[٤٠] .

---

[٣٥] سورة يوسف ١١ .

[٣٦] زاد المسير ٤ / ١٨٦ .

[٣٧] ينظر : القراءة في البحر المحيط ٥/٢٨٥ .

[٣٨] ينظر : الكشف ١/١٢٢ .

[٣٩] سورة يوسف ٦٥ .

[٤٠] زاد المسير ٤/ ٢٥٢ ، ينظر : معاني القرآن واعرابه ٢/١١٨ .

نلحظ من نص ابن الجوزي أنه منقول عن الزجاج ، من غير أن يعلق عليه أو يوضح نوع هذا الإدغام ، أو يؤيد الزجاج أو يعارضه في رأيه .

ومِن أمثلة الإدغام أيضا قوله تعالى : (لا تضارّ والدةُ بولـــدها)[٤١] ، بإدغام الراءين في قوله (تضارّ) .

تناول ابن الجوزي هذا النوع من الإدغام كسابقه ، فقد اكتفى بذكر رأي ابن قتيبة منه ، فقال : (قال ابن قتيبة : معناه : لا تضارر ، فأدغمت الـراء في الراء))[٤٢] .

لم يزد ابن الجوزي على ما ذكره ابن قتيبة ، ولم يحاول تعليل الإدغام منه ، وإنما اكتفى بذكر الأصل ، وهو (تضاررْ) ، وإنما حصل الإدغام لأن الأول متحرك والثاني ساكن سكونا عارضا بـــ (لا) الناهية[٤٣] .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ مـــنكم عـــن دينه)[٤٤] ، بإدغام الدالين في قوله (يرتدّ) .

ذكر ابن الجوزي اختلاف القراء في الإدغـــام والإظهـــار فـــي هـــذا الموضع ، فقال : ((قرأ ابن كثير وأبـــو عمـــرو ، و عاصـــم ، وحمـــزة ، والكسائي (يرتدّ) ، بإدغام الدال الأولى في الأخرى ، وقرأ نافع وابن عامر (يرتدد) بدالين))[٤٥].

---

[٤١] سورة البقرة ٢٣٣ .

[٤٢] زاد المسير ١٧٣/١ ، وينظر تفسير غريب القرآن ٨٩ .

[٤٣] ينظر : الكشف ٢٩٦/١ .

[٤٤] سورة المائدة ٥٤ .

[٤٥] زاد المسير ٣٨٠/٢ .

نلحظ من نص ابن الجوزيِ أن قراءة الأكثر بالإدغام ، وإن كان الأصل في هذه اللفظة الإظهار ، فأصلها (يرتدد) ؛ لأن الثاني إذا اسكّن من المضاعَف ظهر التضعيف ، وإنما أدغمت الدال الأولى في الثانية وحرّكت الثانية بالفتح لالتقاء الساكنين[٤٦] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : (قد فرض الله لكمْ تَحِلَّةَ أيمانِكم)[٤٧] ، بإدغام اللامين في قوله (تحلّة) .

ذكر ابن الجوزي الإدغام وعلته نقلا عن المفسرين ، فقال : ((قال المفسرون : وأصل (تحلّة) : (تَحْلِلَة) على وزن (تَفْعِلة) ، فأدغمت))[٤٨] .

لم يذكر ابن الجوزيِ ما جرى من إدغام في هذا الموضع ، وإنما جرى ذلك بعد تسكين اللام الأولى وإدغامها في الثانية وإلقاء حركة اللام الأولى على الثانية[٤٩] . توضح الأمثلة السابقة واحدا من أنواع الإدغام ، وهو الإدغام الكبير ، والواضح منها أن الإدغام جارٍ على قراءة الجمهور أو أكثر الجمهور ، وهو سؤال يفرض نفسه ، لماذا لم يجر الإظهار على قراءة الجمهور أو أكثرهم ؟ لم يحاول ابن الجوزي الوقوف على هذه الحقيقة وحلّ هذا السؤال ، ولهذا لو رجعنا إلى كتب المتقدمين والمتأخرين لوجدنا جوابا لهذا السؤال ، إذ ان الإدغام لغة أهل الحجاز و تميم ، وهي لغة أكثر العرب ،

---

[٤٦] ينظر : معاني القرآن واعرابه ١٨٣/٢ ، وزاد المسير ٢/ ٣٨٠ .

[٤٧] سورة التحريم ٢ .

[٤٨] زاد المسير ٣٠٦/٨ .

[٤٩] ينظر : التبيان ، للعكبري ٢/ ١٢٢٨ ، ومشكل أعراب القرآن ٣٨٧/٢ .

قال سيبويه : ((أمّا ما كانت عينُهُ ولامُهُ من موضع واحدٍ ، فـإذَا تحرّكـتِ اللام منه وهو فعل ألزموه وأسكنوا العين فهذا متلئبٌ في لغـة تمـيم وأهـل الحجاز))[٥٠] .

إذا ورود الإدغام في لغة أكثر العرب متلئبا مطّردا ، ولكن هذا لا يعني اتفاق الحجازيين والتميميين مطلقا ، فقد ورد عنهم الاختلاف في موضـع لا مجال لذكره[٥١] .

الإدغام في كلمتين :

وهو القسم الثاني من أقسام إدغـام المتمـاثلين ، ويـسمى (الإدغـام الصغير) من ذلك قوله تعالى (لكـنَّ هـو الله ربـي و لا أشـرك بربـي أحدا)[٥٢]، بإدغام نون (لكن) بنون (أنا) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام نقلا عن ابي عبيدة ، فقال : ((قـال ابو عبيدة : مجازه (لكنْ هو الله ربي) ثمّ حذفت الألف الأولى وأُدغمت إحـدى النونين في الأخرى فشددت)) [٥٣] .

الواضح من نص ابن الجوزي أن ابا عبيدة حاول تعليل هذا الإدغـام على المجاز ، وإن كان في تعليله بعض الإبهام ، وقد فصّل فيه العكبري في قوله : ((الأصل (لكنْ أنا) فألقيت حركة الهمزة على النون ، وقيل : حذفت

---

(٥٠) الكتاب ٤/٤١٧ .

(٥١) ينظر : تفصيل الكلام على الاختلاف : الدرس اللهجي في الكتب النحوية والصرفيـة ١٠٦ / ١١٠ .

(٥٢) سورة الكهف ٣٨ .

(٥٣) زاد المسير ٥/ ١٤٤ ـ ١٤٥ ، ينظر : مجاز القرآن ١/٤٠٣ .

حذفا وأُدغمت النون في النون ، والجيد حذف الألف في الوصل وإثباتها في الوقف ، لأن (أنا) كذلك ، والألف فيه زائدة لبيان الحركة))[٥٤] .

المبحث الثاني: إدغام المتجانسين :

وهو النوع الثاني من أنواع الإدغام، وقد عرفه اللغويون باتفاق الحرفين مخرجاً، واختلافهما في بعض الصفات، كإدغام الدال والتاء[٥٥] .

سار ابن الجوزي في هذا النوع من الإدغام على طريق النوع الأول، فنراه يذكر قسمي هذا النوع ، وهما :

الإدغام في كلمة واحدة :

ورد هذا الإدغام في عدة مواضع من القرآن الكريم ، وحاول ابن الجوزي التعليق عليها ، وكثيرا ما يرد هذا الإدغام بين حرفي الدال والتاء ، من ذلك قوله تعالى ((وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها))[٥٦] ، بإدغام التاء في الدال في قوله : (ادارأتم) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام في معرض كلامه على هذه الآية ، فقال : ((بمعنى : (تدارأتم) ، ... فأدغمت التاء في الدال ، لأنهما من مخرج واحد))[٥٧] .

---

[٥٤] التبيان للعكبري ٨٤٧/٢ .

[٥٥] ينظر : الممتع في التصريف ٦٦٣/٢ ، وأحكام تجويد القرآن ٤٦ .

[٥٦] سورة البقرة ٧٢ .

[٥٧] زاد المسير ١٠١/١ .

الواضح من نص ابن الجوزي أن الإدغام حاصل بين التاء والـدال ؛ لأنهما من مخرج واحد[٥٨] ، فمخرجهما بين طرف اللسان وأصول الثنايا[٥٩] ، فهو إدغام المتجانسين وإدغامه كبير ، لأن الأول متحرك ، وبعد أن جـرى الإدغام جلبت الهمزة للتخلص من الابتداء بالساكن[٦٠] .

ومن هذا الإدغام بين التاء والدال قوله تعالى : ((حتـى إذا ادَّارَكُـوا فيها))[٦١]، بإدغام التاء في الدال في (ادّاركوا) .

ذكر ابن الجوزي الإدغام في هذا الموضع نقلا عن ابن قتيبة ، فقال : ((قال ابن قتيبة : أي : تداركوا ، فأدغمت التاء في الدال ، وأدخلت الألـف ليسلم السكون لما بعدها))[٦٢] .

ومن أمثلة الإدغام في هذا الفعل أيضا قوله تعالى : ((بل ادّاركَ عِلْمُهُم في الآخرة))[٦٣] ، بإدغام التاء في الدال في (ادّارك) .

ورد الإدغام في هذا الفعل في قراءة مجموعة من القراء ، قـال ابـن الجوزي : ((قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي (بـل ادّارك)

---

[٥٨] ينظر : معاني الاخفش ١٠٦/١ .

[٥٩] ينظر : الكتاب ٤ / ٤٣٣ ، وسر صناعة الاعراب ٤٧/١ ، ١٤٥ ، ١٨٥ .

[٦٠] ينظر : معاني الأخفش ١٠٦/١ .

[٦١] سورة الاعراف ٣٨ .

[٦٢] زاد المسير ١٩٥/٣ ، ينظر : تفسير غريب القرآن ١٦٧ .

[٦٣] سورة النمل ٦٦ .

على معنى : (بل تدارك) ... فأدغمت التاء في الدال))[٦٤] ، وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو (بل أدرك) ، من غير إدغام[٦٥] .

ومن هذا الإدغام أيضا قوله تعالى : ((لولا أن تَدَاركه نِعمةٌ من ربه))[٦٦] ، على قراءة أبي هريرة وأبي المتوكل : (تدّاركه) بالإدغام[٦٧].

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام من غير الإشارة إلى موضعه ، وإنما اكتفى بوصف القراءة ومن قرأ بها وذكر جواز القراءة بالإدغام .[٦٨]

ومن أمثلة إدغام التاء في الدال قوله تعالى : ((امَّن لا يَهِدِّي))[٦٩] ، بالإدغام في (يهدّي) ، لأن أصله يهتدي[٧٠] .

وقد يكون الإدغام عكس السابق ، بأن يدغم الدال في التاء ، من ذلك قوله تعالى : ((لو يجدون ملجأً أو مَغَاراتٍ أو مدّخلا))[٧١] ، بالإدغام في قوله (مدّخلا) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام ، وعلله بالابدال ، فقال : ((وأصل (مُدَّخل) : مُدْتخل ، ولكن التاء تبدل بعد الدال دالا ، لأن التاء مهموسة والتاء والدال من مكان واحد ، فكان الكلام من وجه واحد أخف))[٧٢] .

---

[٦٤] زاد المسير ١٨٨/٦ .

[٦٥] ينظر : القراءة في حجة ابي زرعة ٥٣٥ ، الكشف ١٦٤/٢ .

[٦٦] سورة القلم ٤٩ .

[٦٧] ينظر : القراءة في التفسير الكبير ٣/ ٩٨ ، والبحر المحيط ٨/ ٣١٧ .

[٦٨] ينظر : زاد المسير ٨/ ٣٤٣ .

[٦٩] سورة يونس ٣٥ .

[٧٠] ينظر : زاد المسير ٤/ ٣٠ .

[٧١] سورة التوبة ٥٧ .

[٧٢] زاد المسير ٣/ ٤٥٣ .

نلحظ من كلام ابن الجوزي أن لفظة (مـدّخل) مـرّت بمـرحلتين ، مرحلة الإبدال ومرحلة الإدغام ، فبعد أن أبدلت التاء دالا التقى المثلان فـي كلمة واحدة فجرى فيهما الإدغام ، وهو من باب إدغام المثلين ، وإنمـا لـم يدرجا في إدغام المثلين وكانا من المتجانسين على اعتبار مـا كـان ، أي : الأصل ، فوزن (مُدْدَخل) بعد أن جرى الإبدال (مفتعل) ، فاصـل الـدال الأولى تاء ، فعُدّ من المتجانسين نظرا إلى الأصل .

لم يقتصر إدغام التاء على الدال ، وإنما ورد إدغامه في الطاء ، مـن ذلك قوله تعالى : (وإن كنتم جنباً فاطَّهَروُا)[٧٣] . بإدغام التاء في الطاء في قوله (فاطّهروا) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام وأصله في قوله : ((أي : فتطهـروا ، فأدغمت التاء في الطاء ، لأنهما من مكان واحد، واجتلبت الهمزة توصلا إلى النطق بالساكن))[٧٤].

علل ابن الجوزي الإدغام باتفاق الطاء والتـاء فـي المخـرج ، قـال سيبويه: ((ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مُخْـرَج الطـاء والـدال والتاء))[٧٥] ، فمخرجهما واحد .

---

[٧٣] سورة المائدة ٦ .

[٧٤] زاد المسير ٢/ ٤٠٣ .

[٧٥] الكتاب ٤٠ / ٤٣٣ .

ومن إدغام التاء في الطاء قوله تعالى : ((الذين يلمزون المُطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات))[٧٦] ، بإدغام التاء في الطاء في قوله (المطّوّعين) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام نقلا عن الفراء ، فقال : ((أي : المتطوعين ، قال الفراء : أدغمت التاء في الطاء ، فصارت طاءً مشددة))[٧٧] .

ومن صور هذا الإدغام إدغام الياء في الواو ، قال تعالى : (الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم)[٧٨] ، بإدغام الياء في الواو في قوله : (القيوم) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام في قوله : ((وأصل (القيُّوم) : القيووم ، فلّما اجتمعت الياء والواو ، والسابق ساكن ، جعلت ياء مشدّدة))[٧٩] .

نلحظ من نص ابن الجوزي أن أصل الياء المشدّدة ياء ساكنة بعدها واو ، وهو ما ذكره المازني أيضا في قوله : ((وقال بعض العرب : (قيّوم) ، و (ديّور) ، فقلبوا أيضا وأصلها : (قيْوُوم) و (ديْوُور) ، فقلبوا لذلك وبنوه على (فيْعُول) و (فَيعال))) .[٨٠]

---

[٧٦] سورة التوبة ٧٩ .

[٧٧] زاد المسير ٣/ ٤٧٧ ، ينظر : معاني القرآن ١/ ٤٤٧ .

[٧٨] سورة البقرة ٢٥٥ .

[٧٩] زاد المسير ١/ ٣٠٣ .

[٨٠] المنصف ٢/ ١٨ .

ومن أمثلة هذا الإدغام قوله تعالى : (ومن يــولهم يومئــذٍ دبــره إلاّ متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله)[٨١] ، بإدغام الياء في الواو في قوله : (مُتحيِّزا) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام فــي قولــه : ((أصــل (مُتحيّــز) : مُتْحَيْوِز ، فأدغمت الياء في الواو))[٨٢].

الواضح من نص ابن الجوزي أن الأصل فــي قولــه : (متحيِّــز) : مُتْحَيْوِز ، على وزن (مُتْفَيْعِل) ، لأنه مــن الفعــل (أنحــاز) ، وجــذره (حوز) ، فلما تجاورت الواو المكسورة والياء الساكنة ، قلبت الــواو يــاءً فأدغمت في الياء التي قبلها[٨٣] ، وهو إدغام شبيه بإدغام المثلين ، إلا أنــه لا يعدُّ من إدغام المثلين لأنه ينظر إلى أصله ، فالواو واليــاء مــن الحــروف الهوائية ، قال سيبويه : ((ومنها الهاوي ، وهو : حرف اتّسع لهواء الصوت مخرجُهُ أشدَّ من اتساع مخرج الياء والواو))[٨٤].

ومن أمثلة هذا الإدغام قوله تعالى : (وقال نــوحٌ ربِّ لا تــذرْ علــى الأرض من الكافرين ديّارا)[٨٥] .

---

(٨١) سورة الانفال ١٦ .

(٨٢) زاد المسير ٣ / ٣٣١ .

(٨٣) ينظر لسان العرب (حوز) .

(٨٤) الكتاب ٤ / ٤٣٥ ــ ٤٣٦ .

(٨٥) سورة نوح ٢٦ .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام نقلا عن الزجاج ، فقال ((وقال الزجاج : أصلها (دَيْوَار) فيعال ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت إحداهما في الأخرى))[٨٦] .

نلحظ من نص ابن الجوزي أن الواو قلبت ياء ، ولكن لماذا قلبت الواو ياء ، وليس العكس ، إنما جرى هذا ((لأن رجوع الواو إلى الياء أخفّ من رجوع الياء إلى الواو))[٨٧] ، والعرب تلتمس الخفة في جميع كلامها .

الإدغام في كلمتين :

كما وجدنا ادغام المتجانس في كلمة واحدة ، نجد هذا الإدغام في كلمتين ، من ذلك قوله تعالى : (ويقولون طاعةٌ فإذا برزوا من عندك بيّتَ طائفة منهم غير الذي تقول)[٨٨] .

ذكر ابن الجوزي إدغام التاء في قوله (بيت) في الطاء في قوله : (طائفة) على قراءة من سكنّ التاء ، فقال : ((قرأ أبو عمرو وحمزة (بيتْ) بسكون التاء[٨٩]، وإدغامها في الطاء ، ... قال أبو علي : التاء والطاء والدال من حيّز واحد، فحسن الإدغام)) .[٩٠]

نلحظ من نص ابن الجوزي أن الإدغام حاصل بسكون التاء ، فمن حرّكها فصل ، ((وحجة من أدغم التاء كما كانت من مخرج الطاء حسن فيها

---

[٨٦] زاد المسير ٨ / ٣٧٥ ، ينظر : معاني القرآن واعرابه ٥ / ٢٣١

[٨٧] مشكل اعراب القرآن ١/ ١٠٦ .

[٨٨] سورة النساء ٨١ .

[٨٩] ينظر : القراءة في الكشف ١/ ٣٩٣ ، التفسير الكبير ٣/ ٢٦٨ .

[٩٠] زاد المسير ٢/ ١٤٢ .

الإدغام ، إذ كانا من مخرج واحد فأشبها المثلين ، وقوّى ذلك أنك تنقل التـــاء بالإدغام إلى حرف قوي ، وأقوى من التاء بكثير ، ففي الإدغام زيادة قوة في المدغم ، وذلك مما يحسن جواز الإدغام ويقويه))[٩١] .

المبحث الثالث : إدغام المتقاربين

وهو النوع الثالث من أنواع الإدغام ، وقد عرّفه اللغويـــون بتقـــارب الحرفين في المخرج ، واختلافهما في بعض الصفات ، ويكـــون فـــي كلمـــة واحدة كإدغام القاف في الكاف في قولك : (نخلقكم) ، أو في كلمتين كإدغام اللام في الراء في قولك : (وقل ربِّ) [٩٢].

الإدغام في كلمة واحدة :

ورد الإدغام بين الحرفين المتقاربين في كلمة واحدة ، وهو من الإدغام الكبير ، من ذلك إدغام التاء في الـــذال فـــي قولـــه تعـــالى : (قلـــيلا مـــا تَذَكَّرون)[٩٣] ، في قراءة (تذَّكّرون) بتشديد الذال .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام في معرض كلامه على القراءة ، فقال : ((قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو و أبو بكر عن عاصم : (تذَّكرون) مشدّدة الذال والكاف ، ... قال أبو علي : ... أراد (تتذكرون) ، فأدغم التـــاء فـــي الدال وإدغامها فيها حسن ، لأن التاء مهموسة والذال مجهورة ، والمجهـــور أزيد صوتا من المهموس وأقوى ، فإدغام الأنقص في الأزيد حسن))[٩٤] .

---

[٩١] الكشف عن وجوه ، مكي ١/ ٣٩٣ .

[٩٢] ينظر : الممتع في التصريف ٢/ ٦٦٣ ، واحكام تجويد القرآن ٤٦ .

[٩٣] سورة الاعراف ٣ .

[٩٤] زاد المسير ٣ / ١٦٧ .

نلحظ من هذا النص أنّ إدغام التاء في الذال حسن ، وإنما جاء حسنه لتقاربهما في المخرج ، فمخرجهما من طرف اللسان ، إلاّ أن التاء من أصول الثنايا والذال من أطراف الثنايا[٩٥] ، فضلاً عن تقاربهما في الصفة ، كما ذكر في النص .

ومن أمثلة إدغام التاء في الذال قوله تعالى : (وجاء المعـذِّرون)[٩٦] ، بإدغام التاء في الذال في قوله (المعذَّرون) .

ورد الإدغام في قوله (المعذَّرون) ، لأن أصـله (المعتـذرون) ، فأدغم التاء في الذال[٩٧] .

لم يقتصر الإدغام في التاء والذال على هذه الصور ، فقد ورد إدغـام الذال في التاء ، وذلك في قوله تعالى : (فاتخذتموهم سخريا حتـى أنـسوكم ذكري)[٩٨] ، بإدغام الذال في التاء في قوله (فاتّخذتموهم) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام نقلا عـن الزجـاج ، فقـال : ((قـال الزجاج : الأجود إدغام الذال في التـاء ، لقـرب المخـرجين ، وإن شـئت أظهرت ، لأن الذال من كلمة والتاء من كلمة ، وبين الذال والتاء في المخرج شيء من التباعد))[٩٩] .

---

[٩٥] ينظر : الكتاب ٤ / ٤٣٣ .

[٩٦] سورة التوبة ٩٠ .

[٩٧] ينظر : زاد المسير ٣ / ٤٨٣ .

[٩٨] سورة المؤمنون ١١٠ .

[٩٩] زاد المسير ٥ / ٤٩٣ ، ينظر : معاني القرآن واعرابه ٤/ ٢٤ .

الواضح من نص ابن الجوزي وكلام الزجاج أن الإدغام حسن ، مع جواز الإظهار ولكن اللافت للنظر أن الزجاج عدّ هذا الإدغام بين كلمتين؛ لأنه جعل الفعل (اتخذ) كلمة و (تاء) الفاعل كلمة أخرى ، ولكن ما يبدو لنا ان الإدغام حاصل في كلمة واحدة ، لأن الفعل والفاعل كلمة واحدة ، بدليل بناء الفعل مع تاء الفاعل على السكون ، لتلافي توالي أربع حركات .

ومن أمثلة هذا الإدغام قوله تعالى : (لو شئت لتَّخَذْتَ عليه أجرا)[١٠٠] ، بإدغام الذال في التاء في قوله (لتخذت) .

جرى الإدغام في هذه اللفظة بحسب ما ورد من قراءة مجموعة من القراء في حين أُظهر الحرفين آخرون ، قال ابن الجوزي : ((قرأ ابن كثير وأبو عمرو (لتَخِذْت) بكسر الخاء ، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال ، وابن كثير يظهرها ، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي (لاتّخذت) وكلهم أدغموا ، إلاّ حفصا عن عاصم ، فإنه لم يدغم مثل ابن كثير))[١٠١] .

نلحظ من نص ابن الجوزي أن الإدغام والإظهار جائزان بحسب ما ورد في القراءات ، إذ تجوز القراءة بالإدغام ، وتجوز بالإظهار .

وقد يصاحب الإدغامَ بين هذين الحرفين إبدالٌ ، ليحصل التجانس الصوتي من ذلك قوله تعالى : (وادّكر بعد أمةٍ)[١٠٢].

---

[١٠٠] سورة الكهف ٧١ .

[١٠١] زاد المسير ٥ / ١٧٧ .

[١٠٢] سورة يوسف ٤٥ .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام نقلا عن الزجاج ، فقال : ((قال الزجاج : وأصل (ادكر) : اذتكر ، ولكن التاء أبدلت منها الدال وأدغمت الذال في الدال))[١٠٣] .

نلحظ من نص ابن الجوزي وكلام الزجاج أن لفظة (مدّكر) قد تعرضت إلى إبدال وإدغام حتى أنتهت إلى هذه الصورة ، ومما يؤيد هذا الكلام ، أي : أنها كانت (اذدكر) قبل الإدغام ، قراءة الحسن (واذّكر) ، بتشديد الذال[١٠٤] ،فأصل اللفظة (اذتكر) على وزن (افتَعَل) ، فأبدلت تاء الافتعال دالا ، لتتجانس مع الذال التي قبلها ، فلما اجتمعت الذال والدال ، ثقل على العربي النطق بهما ، فتوخى الخفة في الإدغام فأدغم .

ومن أمثلة هذا الإدغام أيضا قوله تعالى : (فهل من مدّكر)[١٠٥] . فقد ذكر ابن الجوزي أن أصله (((مذتكر) ، فأبدلت التاء دالا))[١٠٦] .

إذا جرى الإدغام في هذه اللفظة جريه في قوله (وادّكر) ، إلاّ أن ابن قتيبة خالف هذا التعليل ، إذ جعل أصل اللفظة (مذتكر) فأدعم الذال في التاء فصار (مذّكر) ثم قلبت الدال دالا مشدّدة[١٠٧] ، وهذا يعني أن الإبدال حاصل بعد الإدغام بينما جعل ابن الجوزي الإدغام بعد الإبدال .

---

[١٠٣] زاد المسير ٤ / ٢٣١ ، ينظر : معاني القرآن واعرابه ٣ / ١١٣ .

[١٠٤] ينظر : القراءة في البحر المحيط ٥ / ٣١٤ .

[١٠٥] سورة القمر ٥١ .

[١٠٦] زاد المسير ٨ / ٩٤ .

[١٠٧] ينظر : تفسير غريب القرآن ٤٣٢ .

يخضع الإبدال السابق لاختلاف لغات القبائل العربية ، فقد ذكر اللغويون المتقدمون والمتأخرون هذا الاختلاف ونسبته إلى القبائل ، قال الفراء : وقوله : (فهل من مُـدَّكر)[108] ، المعنى : مذتكر ، وإذا قلت (مُفْتَعِل) فيما أوله ذال صارت الذال وتاء الافتعال دالا مشدّدة ، وبعض بني أسد يقولون : (مُذَّكر) ، فيقلبون الذال فتصير ذالا مشدّدة))[109] .

إذا أكثر العرب يغلّبون الدال على الذال ، خلافا لبعض بني أسد الذين يغلّبون الذال على الدال ، وما كان هذا الإدغام إلا من تأثير الحرف السابق في اللاحق أو العكس ، فحصول الإبدال في هذا الموضع خاضع لقانون اللغة لأن الذال ((الرخوة صارت شديدة ، أي دالا ، والتاء المهموسة اصبحت مجهورة))[110]، أي دالا ايضا فإذا اثبت لدينا أن أحد الحرفين قد أثر في الآخر ، ((فيكون التأثير إما (متقدما) وإما (راجعا) ، إذا تأثرت التاء المهموسة في (مُذتكَر) بالذال المجهورة ، فقلبت دالا فصارت (مُذْدكر) ، وهو التأثير المتقدم ، ثم تطور بصورة أخرى بأن فَنِي الصوت الثاني في الأول ، ونطق بهما صوتا واحدا كالأول ، فقالوا : (مُـذَّكر) ، فإن فَنِي الصوت الأول في الثاني فقالوا : (مُدّكر) فهو تأثير راجح))[111] .

---

(108) سورة القمر ١٥ ، ٥١ .

(109) معاني القرآن ٣ / ١٠٧ ، ينظر : نفسه ١ / ٢١٥ ، وتفسير الكبير ٢٧ / ٩٦ ، وتهذيب اللغة ١٠ / ١١٠ (دكر) ولسان العرب(ذكر) ، وتاج العروس (دكر) .

(110) التطور النحوي ١٩ .

(111) الدرس اللهجي ١٤٠ ، ينظر الأصوات اللغوية ١٨١ ــ ١٨٢ ، ودراسة الصوت اللغوي ٣٢٥ ، والمصطلحات الالسنية في اللغة العربية ٢٥٥ .

ومن صور الإدغام أيضا إدغام التاء في الشين ، من ذلك قوله تعالى : (ويوم تشقّقُ السماءُ بالغمام)[١١٢] .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام في قراءة من شدّد الشين ، فقال : ((وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر (تشّقّق) بالتشديد ، فأدغموا التاء في الشين ، لأن الأصل : تتشقق))[١١٣] .

وقد يدغم التاء في الظاء ، من ذلك قوله تعالى : (تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان)[١١٤] بقراءة من شدّد الظاء .

ذكر ابن الجوزي هذه القراءة في قوله : ((من قرأ : (تظّاهرون) ، بتشديد الظاء ، أدغم التاء في الظاء ، لمقاربتها لها ، مخفف الإدغام))[١١٥] .

إذا نلحظ من نص ابن الجوزي أن الإدغام حاصل بسبب قرب الحرفين التاء والظاء ، لابتغاء الخفة في النطق ، لأن الأصل (تتظاهرون)[١١٦] ، بتاءين ، فأدغمت الثانية في الظاء[١١٧]، لقرب مخرجيهما ، فالظاء من مخرج الذال[١١٨] ولما ثبت قرب مخرج التاء والذال فيما سبق ، فقد ثبت هذا القرب في الظاء .

---

(١١٢) سورة الفرقان ٢٥ .

(١١٣) زاد المسير ٦ / ٨٤ .

(١١٤) سورة البقرة ٨٥ .

(١١٥) زاد المسير ١ / ١١١ ، ينظر حجة أبي زرعة ١٠٤ .

(١١٦) ينظر : التبيان ، للعكبري ١ / ١٨٦ .

(١١٧) ينظر : المهذب في القراءات العشر ٦٣ .

(١١٨) ينظر : الكتاب ٤ / ٤٣٣ .

ومن صور الإدغام أيضا إدغام التاء في السين ، في قوله تعالى : (واتقوا الله تساءلون به والأرحام)[١١٩] ، بقراءة التشديد في التاء (تساءلون) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام نقلا عن الزجاج ، فقال : ((قال الزجاج : الأصل : تتساءلون ، فمن قرأ بالتشديد أدغم التاء في السين ، لقرب مكان هذه من هذه))[١٢٠].

الواضح من نص ابن الجوزي أن اختلاف القراء كان في الإدغام والإظهار ، وقد اختار مكي بن ابي طالب الإدغام ، في قوله : ((هو الأصل وهو المختار وقوي الإدغام ؛ لأن التاء والسين من حروف طرف اللسان وأصول الثنايا ؛ ولأنهما مهموسان ؛ ولأن التاء تنتقل إلى قوة مع الإدغام ؛ لأنك تبدل منها حرفا فيه صفير ، وذلك قوة في الحرف))[١٢١] .

ومن أمثلة إدغام التاء في السين قوله تعالى : (يومئذٍ يودّ الذينَ كفروا وعَصَوا الرسول(ﷺ) لو تَسوّى بهمُ الأرض)[١٢٢]. بقراءة من شدّد السين في (تُسوى) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام في معرض كلامه على القراءة ، فقال : ((وقرأ نافع وابن عامر: (لو تَسَّوى)، بفتح التاء وتشديد السين ، والمعنى : تتسوى ، فأدغمت التاء في السين ، لقربها منها))[١٢٣] .

---

[١١٩] سورة النساء ١ .

[١٢٠] زاد المسير ٢ / ٢ ، ينظر : معاني القرآن وأعرابه ٢ / ٦ .

[١٢١] الكشف ، لمكي ١ / ٣٧٥ .

[١٢٢] سورة النساء ٤٢ .

[١٢٣] زاد المسير ٢ / ٨٦ ــ ٨٧ .

نلحظ من نص ابن الجوزي أن قرب التاء من السين دعا جماعة من القراء إلى الإدغام ، لأنهم استثقلوا النطق بتاءين بعدهما سين .

ومن أمثلة هذا الإدغام أيضا قوله تعالى : (لا يسَّمَّعُون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب)[١٢٤] ، بتشديد السين في (يسّمّعون) .

ذكر ابن الجوزي قراءة جماعة من القراء بالإدغام في قوله : ((وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف (لا يسّمعون) ، بتشديد السين ، وأصله : يتسمعون ، فأدغمت التاء في السين))[١٢٥] .

وللتاء موضع آخر في الإدغام ، فقد ورد إدغامه في الصاد في قوله تعالى : (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما)[١٢٦] ، بقراءة من قرأ بتشديد الصاد في (يصلحا) .

ذكر ابن الجوزي الإدغام في موضع كلامه على القراءة ، فقال : ((قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر (يصّالحا بينهما) ، بفتح الياء والتشديد ، والأصل : يتصالحا ، فأدغمت التاء في الصاد))[١٢٧] .

ومن أمثلة هذا الإدغام أيضا قوله تعالى : (وأن تصدّقوا خيرٌ لكم)[١٢٨] ، بقراءة من شدّد الصاد .

---

[١٢٤] سورة الصافات ٨ .

[١٢٥] زاد المسير ٧ / ٤٧ .

[١٢٦] سورة النساء ١٢٨ .

[١٢٧] زاد المسير ٢١٨ ، ينظر : حجة ابن خالويه ١٢٦ ، والكشف ١ / ٣٩٨ .

[١٢٨] سورة البقرة ٢٨٠ .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام في قوله : ((والأكثرون على تشديد الصاد))[129].

نلحظ من نص ابن الجوزي أنه ترك تعليل التشديد ، واكتفى بذكره من غير تعليق ولكن غير ذكر حجة التشديد ، فمن شدّد لأنه ((أدغم التاء في الصاد ، لقرب المخرجين))[130] .

ومن أمثلة هذا الإدغام أيضا قوله تعالى : (لنصَّدَّقَنَّ ولنكونَنَّ مِنَ الصالحين)[131] ، بتشديد الصاد في (لنصَّدَّقَنَّ) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام في قوله : ((الأصل : لنتصدقن ، فأدغمت التاء في الصاد لقربها منها))[132] .

ومن أمثلة هذا الإدغام أيضا قوله تعالى : (كأنما يصّعّد في السماء)[133] ، بتشديد الصاد .

ذكر ابن الجوزي الإدغام من خلال قراءة من شدّد الصاد نقلا عن الزجاج ، فقال : ((قال الزجاج : قوله : (كأنما يصّاعد في السماء) و (يصّعد) ، أصله : يتصاعد ، ويتصعد ، إلا أن التاء تدغم في الصاد لقربها منها))[134] .

---

(129) زاد المسير ١ / ٣٣٤ .

(130) حجة ابي زرعة ١٤٩ .

(131) سورة التوبة ٧٥ .

(132) زاد المسير ٣ / ٤٧٤ .

(133) سورة الانعام ١٢٥ .

(134) زاد المسير ٢ / ١٢٠ ــ ١٢١ ، ينظر معاني القرآن واعرابه ٢ / ٢٩٠ .

ومن أمثلة هذا الإدغام أيضا قوله تعالى : (ما ينظـــرون إلاّ صـــيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون)[١٣٥] ، بتشديد الصاد في (يخصّمون) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام في قولـــه : ((بمعنـــى : يختـــصمون ، فأدغمت التاء في الصاد))[١٣٦] .

نلحظ من النصوص التي ذكرها ابن الجوزي في إدغـــام التـــاء فـــي الصاد ، أن سبب الإدغام قربهما ، فقد اشتركا في المخرج بطرف اللسان إلاّ أن التاء من أصول الثنايا والصاد من فويق الثنايا[١٣٧] ، فضلا عن اشتراكهما في صفة الهمس ، إلا أن التاء شديد والصاد رخو[١٣٨] .

ومن صور هذا الإدغام إدغام الثاء في التاء في قوله تعالى : (قال كم لبثت)[١٣٩] ، بإدغام الثاء في التاء في (لبثت) .

ذكر ابن الجوزي قراءة من أدغم هذين الحرفين ، فقال : ((وقرأ ابـــو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وبالإدغام (لبـــتّ) ، قـــال أبـــو علـــي الفارسي : مَن بيّن (لبثت) فلتباين المخرجين ، وذلك أن الظاء والذال والثاء من حيز ، والطاء والدال والتاء من حيز ، فلمّا تباين المخرجـــان واختلـــف الحيزان لم يدغم ، ومن أدغمهما أجراها مجرى المثلين ، لاتفاق الحرفين في

---

[١٣٥] سورة يس ٤٩ .

[١٣٦] زاد المسير ٧ / ٢٤ .

[١٣٧] ينظر : الكتاب ٤ / ٤٣٣ .

[١٣٨] ينظر : نفسه ٤ / ٤٣٤ .

[١٣٩] سورة البقرة ٢٥٩ .

انهما من طرف اللسان وأصول الثنايا واتفاقهما في الهمس ، ورأى الذي بينهما من الاختلاف يسيرا ، فأجراهما مجرى المثلين))[١٤٠] .

الإدغام في كلمتين :

ورد إدغام المتقاربين في كلمتين في موضع واحد ، وهو إدغام الدال في الجيم في قوله تعالى : (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا)[١٤١] ، بإدغام الدال في الجيم في (فقد جعلنا) .

ذكر ابن الجوزي هذا الإدغام نقلا عن الزجاج في قوله : ((قال الزجاج : الأجود إدغام الدال مع الجيم ، من الإظهار جيد بالغ ، إلاّ أن الجيم من سوط اللسان ، والدال من طرف اللسان ، والإدغام جائز ، لأن حروف وسط اللسان تقترب من حروف طرف اللسان))[١٤٢].

هذا آخر صور الإدغام التي أحصيناها من كتاب زاد المسير .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة في كتاب زاد المسير التي وقفنا فيها على ما ذكره ابن الجوزي حول الإدغام وموضعه وحروفه ، ولمسنا مدى الدقة في تحديد الموضع ، فقد خرجنا بعدة نتائج ، أهمها :

١- عرض ابن الجوزي لبعض الأمثلة القرآنية للإدغام ، سواءٌ في النص القرآني أم القراءة ، واختلاف القراء بين الإدغام والإظهار .

---

[١٤٠] زاد المسير ١ / ٣١٠ ، ينظر : الحجة لابي علي ٢ / ٣٦٧ .

[١٤١] سورة الاسراء ٣٣ .

[١٤٢] زاد المسير ٥ / ٣٢ ، ينظر : معاني الزجاج ٣ / ٢٣٧ .

٢- حين يحتج لبعض القراءات فإنه يشير إلى علة ما فيها من إدغام كقرب المخرجين ، أو تشابه الصفة ، وغيرها .

٣- غلبت على نصوص ابن الجوزي النقل عن المتقدمين ، كابن قتيبة والزجاج والفراء وأبي عبيدة وأبي علي الفارسي وغيرهم .

٤- لم يبوب ابن الجوزي للإدغام ولم يذكر القسم الذي يرجع إليه أي موضع من المواضع التي ذكرها .

٥- لم يعرّف ابن الجوزي الإدغام ولم يذكر الغرض منه ، أسوة بغيره من علماء لغة القرآن الذين يعرّفون الموضوعات اللغوية في أول موضع تذكر .

هذه وغيرها من النتائج هي ما خرجنا بها من هذا البحث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر

١. القرآن الكريم

٢. الأصوات اللغوية – الدكتور إبراهيم أنيس – مطبعة الأنجلو مصرية – ط٥.

٣. ابن الجوزي، الدكتور حسن عيسى على الحكيم ، دار الثقافة والإعلام بغداد ، ١٩٨٨.

٤. البحر المحيط- أثير الدين محمد بن يوسف المعروف بابي حيان الاندلسي (ت٧٤٥هـ) مطبعة السعادة ، مصر، ط١ ،(١٣٢٨هـ)

٥. البداية والنهاية، ابن كثير،(ت ٧٧٤ هـ) مكتب المعارف، ط٢، ١٩٧٧.

٦. تاج العروس من جواهر القاموس – محمد بن مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) المطبعة الخيرية – مصر – ط١ /١٣٠٦ هـ.

٧. التاريخ لابن الوردي، الطبعة الحيدرية- النجف ، ط٢، ١٩٦٩.

٨. التبيان في إعراب القرآن – أبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) تحقيق : علي محمد البجاوي – دار أحياء الكتب العربية.

٩. التطور النحوي للغة العربية- ج - براجستراشر - ترجمة : رمضان عبد التواب- مطبعة المجد - القاهرة - ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م.
١٠. تفسير الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ط٣/ ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤م.
١١. تفسير غريب القرآن - ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) - تحقيق : السيد أحمد صقر - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٨ هـ.
١٢. التفسير الكبير لابن تيمية، تح: د.عبد الرحمن عميرة، دارالكتب العلمية بيروت، ١٤٠٨ هـ.
١٣. التكملة لوفيات النقلة، زكي الدين المنذري، تح : د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط٢ ١٤٠١ هـ.
١٤. تهذيب اللغة - أبو منصور الأزهري - تحقيق" نخبة من الأساتذة - مطابع سجل العرب - مصر.
١٥. الحجة في القراءات السبع - ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) - تحقيق: عبد العال سالم مكرم - دار الشروق - ط٢ / ١٣٨٩هـ.
١٦. حجة القراءات - أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت أواخر القرن الرابع الهجري) تحقيق: سعيد الأفغاني - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ / ١٣٩٩هـ.
١٧. الحجة للقراء السبعة- أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي (٣٧٧

هـ) – تحقيق : بدر الدين القهوجي،وبشير جويجاتي– دار المأمون للتراث– ط١/ ١٤٠ هـ.
١٨. دراسة الصوت اللغوي، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة – ١٩٧م .
١٩. الدرس اللهجي في الكتب النحوية والصرفية حتى نهاية القرن الثالث الهجري – أحمد هاشم أحمد السامرائي. أطروحة دكتوراه – كلية التربية (ابن رشد – جامعة بغداد – ٢٠٠٢).
٢٠. ديوان الهذليين– نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب – ١٩٥٠ م.
٢١. الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب الحنبلي (ت ١٠٣٥ هـ) ، طبعه وصححه: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٢٧هـ.
٢٢. زاد المسير في التفسير – ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) – المكتب الإسلامي للطباعة والنشر دمشق ط١ / ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤م.
٢٣. سر صناعة الأعراب – أبو الفتح ابن جني (٣٩٢ هـ) – تحقيق: حسن هنداوي – دار القلم – دمشق – ط١ / ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
٢٤. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ) ، تحقيق : د. بشار عواد معروف و د. محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة بيروت.
٢٥. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، المكتب التجاري

للطباعة والنشر بيروت.

٢٦. شرح الشافية – رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي (ت ٦٨٦ هـ) تحقيق : محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٣٩٥ هـ.
٢٧. صيد الخواطر ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ، دراسة وتحقيق محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط١، ١٤٠٥ هـ.
٢٨. في اللهجات العربية – الدكتور إبراهيم أنيس – مطبعة الأنجلو مصرية – ط٤.
٢٩. الكتاب أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه (ت ١٨٠ هـ) – تحقيق عبد السلام هارون – عالم الكتب – بيروت – ط١ ، ١٩٦٣م.
٣٠. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٣٤٧ هـ) – تحقيق الدكتور: محيي الدين رمضان – مطبعة مجمع اللغة العربية – دمشق – ١٣٩٤ هـ.
٣١. لسان العرب –ابن منظور (ت٧١١هـ) – دار صادر – بيروت.

٣٢. لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، أبو الفرج بن الجوزي (ت٥٩٧ هـ) ١، تحقي : د. عبد الغفار سليمان البندراوي، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١، ١٤٠٧هـ .
٣٣. مجاز القرآن – أبو عبيدة معمر بن المثنى – تحقيق: محمد فؤاد سزكين

– مؤسسة الرسالة ، بيروت – ط٢ / ١٤٠١هـ.

٣٤. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، شمس الدين بن قزاوغلي سبط ابن الجوزي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد – الركن- الهند، ط١، ١٣٧٠هـ – ١٩٥١.

٣٥. مشكل أعراب القرآن – مكي بن أبي طالب القيسي – تحقيق: ياسين محمد السواس – دار المأمون للتراث – ط٢.

٣٦ المصطلحات الألسنية في اللغة العربية – الدكتور أحمد مختار عمر – اشغال ندوة اللسانيات في اللغة العربية – مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية – الجامعة التونسية ١٩٧٨م.

٣٧ معاني القرآن- أبو بكر زكريا الفراء (٢٠٧ هـ) – تحقيق: محمد علي النجار وجماعته – مطابع سجل العرب – القاهرة.

٣٨ معاني القرآن – أبو الحسن الأخفش الأوسط (٢١٥ هـ) – تحقيق: فائز فارس – الشركة الكويتية – ط٢ / ١٤٠١ هـ.

٣٩ معاني القرآن وأعرابه – أبو أسحق الزجاج (٣١١ هـ) – تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شبلي – عالم الكتب – بيروت – ط١ / ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

٤٠ معجم الصوتيات – الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي – مطبعة هيئة إدارة واستثمار أموال الوقف السني – ط١ / ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م.

٤١ المقتضب–أبو العباس المبرد (٢٨٥ هـ) – تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة – القاهرة ١٣٩٩ هـ.
٤٢ الممتع في التصريف – ابن عصفور الإشبيلي (٦٦٩هـ) – تحقيق: فخر الدين قباوة – دار الآفاق بيروت – ط٣ / ١٣٩٨ هـ.
٤٣ المنصف لكتاب التصريف– أبو الفتح ابن جني (٣٩٢ هـ) – تحقيق:إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين– دار أحياء التراث القديم– القاهرة – ط١/١٣٧٣ هـ– ١٩٥٤م.
٤٤ المهذب في القراءات وتوجيهها من طريق طيبة النشر – محمد سالم محيسن – مكتبة الكليات الأزهرية – ط٢/ ١٣٨٩هـ .
٤٥ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي (٨٧٤هـ)، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب – مصر.
٤٦ نزهة الأعين النواضر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) ، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ .
٤٧ وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان ، أبو العباس بن خلكان، تحقيق: د. أحسان عباس، دار صادر بيروت.

تأثير مدرسة الطب في الإسكندرية على الطب العربي

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد
باحث في تاريخ الطب العربي الإسلامي
طبيب أطفال ـ الموصل /العراق

الملخص :

إن الأطباء البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على الطب في القـرن الخامس والسادس الميلادي كانوا تلاميذ مدرسة الإسكندرية ، أو كانوا علـى الأقل من أتباع أفكارها .... وقد هجر هؤلاء مواطنهم وتفرقـوا فـي آسـيا الصغرى وشمال العراق وسوريا . وكان لأكثرهم مؤلفات في الطب تـرجم أكثرها إلى العربية ، وبعضها إلى السريانية .

إن مكتبة الإسكندرية كانت قائمة عند دخول العرب المسلمين مـصر وقد ذكر في البحث بعض ما يشير إلى ذلك على سبيل المثال يقول ابن أبي أصيبعة ((عبد الملك بن أبجر الكناني ، كان فـي أول أمـره مقيمـا فـي الإسكندرية ، لأنه كان المتولي في التدريس بها بعد الإسكندرانيين ... أسـلم على يد عمر بن عبد العزيز . . . ولما أفضت الخلافة لعمر في صفر سـنة ٩٩ هـ /٧١٧م ، نقل التدريس إلى أنطاكية وحران وتفرق في البلاد . وكان عمر بن عبد العزيز يستطب بن أبجر فاستدعاه إلى دمشق ولكن ابن أبجـر أبى أن يفارق تلاميذه وكتبه ومكتبة الإسكندرية . ولكن عمر أقنعه بأن يحمل

معه من الكتب ما يشاء ، وسيسهل له وسيلة نقلها ، وأما عن التلاميذ فإنه يدعوهم مع ابن أبجر إليه)).

وأن أثر مدرسة الإسكندرية في نهضة العرب الثقافية قد بدأ أول ما بدأ في العصر الأموي . ويعتبر أعظم ما حدث في العصر الأموي من الناحية الحضارية هو ترجمة بعض الكتب اليونانية إلى اللغة العربية . . . في الكيمياء والطب بطلب من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية .

كما ترجم في خلافة مروان بن الحكم كناش أهرن بن أعين الإسكندراني ، فكان ذلك أول نقل للمعارف اليونانية إلى الأقطار الإسلامية ، لقد استمر تأثير مدرسة الإسكندرية على الثقافة العربية في العصر العباسي كذلك .

وقد تضمن البحث تفصيلاً عن المدارس التي برزت في بدايات العصر العباسي والتي تأثرت بمدرسة الإسكندرية مثل مدرسة أنطاكية ، مدرسة نصيبين ، مدرسة الرها ، مدرسة جند يسابور .

وختاماً نقول إن أثر مكتبة الإسكندرية في مجال الطب كان واضحا في أمرين :

الأمر الأول : انتقال مجالس التعليم الطبي من الإسكندرية إلى بغداد ، عبر قرون طويلة استقر خلالها منهج البحث الطبي عند الأطباء العرب والمسلمين على النحو الذي رسمته الإسكندرية من قبل .

الأمر الثاني : عمق الأثر السكندري في تاريخ الطب العربي الإسلامي ، من خلال تلك المؤلفات الأبقراطية وهي مؤلفات أبقراط التي لم يكن المسلمون يسمحون للطبيب بممارسته مهنته قبل دراستها ، وإلى جانبها كانت مؤلفات

جالينوس التي تعرف باسم منتخبات الإسكندرانيين وهي التي كانت تلي مجموعة أبقراط في الأهمية ....

مما لاشك فيه أن مكتبة الإسكندرية كانت من المراكز المهمة قبل فتح العرب لمصر ، وأنها أدت دورا كبيرا في تاريخ الثقافة الإنسانية باعتبارها المنتدى الثقافي للأطباء والفلاسفة اليونان بعد أثينا ، فضلا عن كونها الجسر الذي عبرت عليه العلوم الإغريقية إلى الشرق .

وعلى الرغم من أن الأخبار التاريخية الخاصة بعصر الإسلام لا تحدثنا عن مدرسة الإسكندرية في عصرها المتأخر إلاّ أن نشاطها الإيجابي يظهر في تكوين تلاميذ مشهورين في مجال الطب .

((إن الأطباء البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على الطب في القرن الخامس والسادس الميلادي كانوا تلاميذ مدرسة الإسكندرية ، أو كانوا في الأقل من أتباع أفكارها .... من هؤلاء الأطباء شمعون الراهب المعروف باسم طيبويه ، وطيماووس الطرسوسي ، وأهرن ابن أعين ، وفيغوريوس ، وسرجيوس الرأس عيني ، وأنتيوس الآمدي ، وبولوس الأجبيني ، وأبو موسى عيسى بن قسطنطين . وقد هجر هؤلاء مواطنهم وتفرقوا في آسيا الصغرى وشمال العراق وسوريا . وكان لأكثرهم مؤلفات في الطب ترجم أكثرها إلى العربية ، وبعضها إلى السريانية ، فزودتنا بالكثير مما ضاعت أصوله الأولى بفعل التعصب المذهبي الذي حارب الوثنية كما حارب أفكارها وكتبها بنفس الشدة والعقيدة ، وقد يسرت ترجمات تلك الكتب لطلاب المعرفة العرب ، من السريان والمسلمين الإطلاع على كل ما كان يعرفه اليونانيون الأقدمون والمخضرمون في الطب وعلى طريقتهم في العمل به . كما أثار اهتمام

العرب بتلك الكتب قربهم من عهود مؤلفيها البيزنطيين ، واتصالاتهم المباشرة مع البعض منهم في مدن سوريا وآسيا الصغرى والإسكندرية . وسوف نرى أن بعض أولئك الأطباء قد عاصروا محمدا (ﷺ) حتى بداية كهولته . ولابد أن كانت هذه المعاصرة أحد العوامل التي سهلت رواج تلك المؤلفات ، ثم ترجمتها فيما بعد إلى العربية . فصارت في الردح الأول من وصول الطب اليوناني إلى العرب هي الكتب الوحيدة المتداولة بين الممارسين والمتعلمين . ولأنها أصبحت عربية اللغة ، فهي من ناحية المنفعة والتطبيق تعتبر من الكتب العربية الأولى في الطب ومرجعا معتمدا لمؤلفات العرب التي وضعت فيما بعد))[1].

وقد ((أتفق كل المؤرخين – عرب وفرنجة – على أن المكتبة كانت قائمة ، بعد أن دخل العرب الإسكندرية ، إلاّ قلة زعمت أنها احترقت أو دمرت قبل ذلك . وسواء أكان عدد ما بها من الكتب لا يتعدى الخمسين ألفا – حسب رواية يحيى النحوي – أو أكثر من ذلك إلاّ أنها كانت قائمة على الرغم مما أصابها من حرائق ، وما وقع عليها من تدمير نتيجة لثورات المصريين ضد البطالمة والرومان ... وسواء أكان ما بها من معلمين لا يتعدى الثلاثة أو أكثر قليلا وجلهم من الأطباء الذين يتعاطون الفلسفة . فالمكتبة قائمة لها كتبها وأساتذتها وطلبتها)) .

---

[1] السامرائي ، الاستاذ الدكتور كمال : مختصر تاريخ الطب العربي – دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٤ ، ج١ ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

((إننا نقول أنه قد تخرج في مدرسة الإسكندرية (موضع التعليم) كما يقول القفطي ، أو المكان الذي ينسب إليه الفلاسفة ، بعد عهد الإسـكندرانيين وهؤلاء الذين نعرفهم من مراجعنا العربيـة ، وقد يكون ذلك نظرا لضـياع المصادر اليونانية بسبب الحملات المسيحية ضد الكتب الطبيعية .

نقول تخرج في مدرسة الإسكندرية عدد من فلاسـفة الـسريان فـي القرنين الخامس والسادس والسابع وكان بعضهم ممن تولى التدريس ولاسيما في ميدان الطب في الإسكندرية ، ولكن مواقعهم غير واضحة وأخبـارهم لا نجدها إلاّ في المؤلفات بالأدب السرياني))[٢].

وأننا على الرغم مما يدعيه مايرهوف من أن الإسكندرية بعد القـرن الرابع قد فقدت كل أهميتها إلاّ أننا نقول أن مكتبة الإسكندرية كانت قائمة عند دخول العرب المسلمين مصر ويمكن ذكر بعض ما يشير إلى ذلك على سبيل المثال :

١ ـ ((في ترجمة أحد الأطباء ، وهو سيرجيوس الرأس عيني المتوفى سنة ٥٣٨م ما يصح أن نستنتج منه كثيراً من المعلومات التاريخية عـن الطـب والأطباء في تلك الحقبة ، ما يصح أن نستنتج منه أن مدرسة الإسكندرية في أواخر عمرها ، كان لها تاريخ حافل في الوقت القريب من ظهور الإسـلام ، وأن كتبهم ومناهج التدريس التي اتبعوها هي نفسها التي أقرتها وعملت بهـا

---

[٢] الحديدي ، الاستاذ الدكتور خالد : الوجه العربي لمكتبة الإسكندرية ـ رسالة دكتوراه ، جامعة أنقرة ، ١٩٨٩، طبعت سنة ١٩٩٦ ـ ص ٩١ ـ ٩٢ .

مدارس سورية ومدرسة جند يسابور فصارت بالتالي همزة الوصل بين الطب اليوناني والطب العربي))[٣].

٢ ـ يقول ابن أبي أصيبعة ((عبد الملك بن أبجر الكناني ، كان طبيبا عالما ماهراً وكان في أول أمره مقيما في الإسكندرية ، لأنه كـان المتـولي فـي التدريس بها بعد الإسكندرانيين (مؤلفي جوامع جالينوس) الذين تقدم ذكرهم ، وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى . ثم أن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية ، أسلم بن أبجر على يد عمر بن عبـد العزيز ، وكان حينئذ أميرا قبل أن تصل إليه الخلافة وصحبه . فلما أفـضت الخلافة إلى عمر ، وذلك في صفر سنة ٩٩هـ ، نقل التدريس إلى أنطاكيـة وحران وتفرق في البلاد . وكان عمر بن عبد العزيز يـستطب بـن أبجـر ويعتمد عليه في صناعة الطب))[٤].

((وكان ابن أبجر صديقا حميما لعمر بن عبد العزيز ... فلما آلـت إليه الخلافة لم ينس صديقه ، وطبيبه الخاص . ولاسيما أن صـحته ابتـدأت تتدهور ، فاستدعاه إلى دمشق ولكن ابن أبجر أبى أن يفارق تلاميذه وكتبـه ومكتبة الإسكندرية التي كان يتولى التدريس بها مكان أبيه .

ولكن عمر أصر على أن يحضر إليه ، فأما المكتبة فلقد أقنعه عمـر بن عبد العزيز أن بأنطاكية مدرسة ومكتبة تضارع مكتبة الإسكندرية إن لـم تفقها . وأما عن الكتب – فعلاوة على ما يوجد في أنطاكية – فلقد أقنعه عمر

---

[٣] السامرائي (مصدر سابق) ص ٢٠٦ .

[٤] ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين ابي العباس احمد : عيون الانباء في طبقات الاطباء ــ إصدار دار الفكر ــ بيروت ١٩٥٦ج٢ ، ص ٢٤ .

بأن يحمل معه من الكتب ما يشاء ، وسيسهل له وسيلة نقلها ، وأما عن التلاميذ ـ وكانوا أقل من القليل - فإن عمر يدعوهم مع ابن أبجر إليه .
وأقنع ابن أبجر ، وسار إلى أنطاكية بكتبه وتلميذين اثنين ولسنا ندري أهم كل ما بقي بالمدرسة أو أنهما وحدهما اللذين قبلا السفر معه))[٥].

وأن أثر مدرسة الإسكندرية في نهضة العرب الثقافية قد بدأ أول ما بدأ في العصر الأموي .

((ويعتبر أعظم ما حدث في العصر الأموي من الناحية الحضارية هو ترجمة بعض الكتب اليونانية إلى اللغة العربية إذ فتحت هذه الحركة نافذة أشرف منها العلماء العرب لأول مرة ، على ما لدى اليونانيين من معارف لم تكن بعد في أفكارهم وكان أول تلك الكتب التي ترجمت من العلوم التطبيقية التي أقدم عليها المترجمون بدافع من الحاجة إلى مضامينها ، أو المتعة في غرابة ، فيها من المعلومات فترجمت كتب في الكيمياء والطب بطلب من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية)) .

الذي استفاد من أحد علماء مكتبة الإسكندرية (مارينوس) في دراسة علوم الكيمياء .

كما ترجم في خلافة مروان بن الحكم كناش أهرن بن أعين الإسكندراني . وقيل أن هذه الترجمة حفظت في خزائن الخلافة إلى أن نشرها بعد ذلك بثلث قرن عمر بن عبد العزيز وكذلك استقدم الخليفة عمر بن عبد العزيز صديقه وطبيبه عبد الملك بن أبجر الكناني من مصر ليمارس الطب

---

[٥] الحديدي : (مصدر سابق) ص ١٠٠ .

ويعلمه في أنطاكيا ، فكان ذلك أول نقل للمعارف اليونانيـــة إلـــى الأقطـــار الإسلامية))[٦].

لقد استمر تأثير مدرسة الإسكندرية على الثـــقافة العربية في العصر العباسي كذلك ،.ولكن بدرجة أقل بسبب انتشار المدارس الجديدة التي أخـــذت تزداد أهمية بعض هذه المدارس ، مثل مدرستي أنطاكية وحران ، كانت قـــد تأثرت هي الأخرى بمدرسة الإسكندرية من قبل في علومها ومعارفها ، وبما أن العرب في العصر العباسي ، قد اعتمدوا على مدرســـتي حـــران وجنـــد يسابور بصفة خاصة لذلك فإن تأثير مدرسة الإسكندرية في هذا العصر كان تأثيرا غير مباشر وعن طريق هاتين المدرستين .

وهنا يستوجب المقام الحديث عن المدارس التي برزت فـــي بـــدايات العصر العباسي بمدرسة الإسكندرية نذكرها حسب زمن ظهورها [٧] :

١ – **مدرســـة أنطاكية** : انتقلت مدرسة الإسكندرية إلى مدرسة أنطاكيا التي تعتبر الحلقة الأولى في انتقال التعليم إليها من الإسكندرية ... وقـــد شـــكلت العلوم اليونانية نواة المنهج المدرسي . وقد عانت هذه المدينـــة الكثيـــر مـــن الأحداث في القرون الأخيرة قبل أن يفتحها العرب سنة ١٧ هـــ / ٥٣٨ م ، فقد خربها الفرس ، ونظرا لوقوعها على الحدود القلقة بـــين الإمبراطوريـــة

---

[٦] السامرائي : (مصدر سابق) ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ .

[٧] الجميلي ، الدكتور رشيد : حركة الترجمة في المشرق الاسلامي في القـــرنين الثالـــث والرابع للهجـــرة ــ دار الـــشؤون الثقافيـــة ــ بغـــداد ١٩٨٦ ، ص ٢٠٧ ــ ٢١٥ (بتصرف) .

البيزنطية والإمبراطورية العربية ، بقيت في العصر الإسلامي موضع نـزاع مستمر ، ومع هذا فقد اختيرت ، لأن هذا الموقع نفسه قد جعل مـن الـسهل إحضار المخطوطات اليونانية من آسيا الصغرى .

ومن المؤكد أن الغاية في هذه المدرسة الحديثة اتجهت إلى الترجمـة السريانية وأصبحت أنطاكية الموطن الجديد لتعاليم الإسكندرية ، وقد أثرت في ازدهار الحضارة الجديدة كما أثرت فيها من قبل مدرسة الإسكندرية .

وبقيت المدرسة في أنطاكية في حدود ١٣٠ أو ١٤٠ سنة وانتقلت إلى حران في خلافة المتوكل (٢٣٢ / ٨٤٧ – ٢٤٧ / ٨٦١) .

٢ – **مدرسـة حـران** : تعتبر هذه المدرسة ، الحلقة الثانية والأخيـرة فـي عملية انتقال التعليم إليها بعد مدرسة أنطاكيا ، حيث كانت مركزا هاما للثقافة اليونانية في المنطقة ، كما كانت مركزا للتبادل والاتصال الثقافي . ومما يدل على حالها من أهمية قديمة ، أن آخر الخلفاء الأمويين وهو مروان الثاني نقل مقر خلافته حيناً إلى هذه المدينة . وحران مدينة مهمة في تاريخ الحـضارة الإسلامية ، فهي المدينة التي أنجبت المشاهير من علماء الطب ، والرياضة ، والفلك ، والترجمة من أمثال ثابت بن قرة وولده سنان والبتـاني وغيـرهم . وظلت هذه المدينة مركزا للديانة الوثنية السريانية إلى ما بعد الإسلام حيـث تسموا بالصابئة .

إن مدرسة حران كانت من أهم المـدارس تـأثيرا فـي الحـضارة الإسلامية في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، حيث عمل النقلة من أتباع هذه المدرسة ، وبفضل مساندة القائمين على أمر حركة الترجمة من نقل معظم ما

كان موجودا من كتب يونانية ، الأمر الذي أدى إلى اقتناء العرب لأهم علوم اليونان عن طريق نقلة حران ، ومن ثم قاموا بتصحيحها فازدهرت تبعا لذلك عملية إجراء البحوث والتأليف في هذه العلوم المترجمة .

٣ – **مدرسة نصيبين** : وهي إحدى المدارس التي عملت على نشر الثقافة اليونانية الفلسفية ، واللاهوت الإغريقي بين المسيحيين الذين يتكلمون الإغريقية . غير أنها تعرضت للمتاعب ، ثم ضاعت أخيرا حين سقطت نصيبين بيد الفرس ، وعاود رئيسها أفرام السرياني عمله في الرها ، وربما اعتبرت مدرسة الرها بعثا لمدرسة نصيبين .

ويبدو التحويل الدائم للثقافة الإغريقية – في صورة سريانية معدلة من الرها عبر الحدود الفارسية إلى نصيبين ، حيث انتشرت في النهاية إلى المجتمع النسطوري ووصلت إلى العرب .

إن أساتذة مدرسة نصيبين في ترجماتهم للكتب الفلسفية اليونانية لإسناد مذهبهم في طبيعة المسيح ، قد خدموا الحضارة الإسلامية بصورة غير مباشرة ، إذ تمكن العرب من الوقوف على تراث اليونان في هذا المجال بفضل تلك الترجمات ، وعليه فإن مدرسة نصيبين تعد مصدراً آخر من مجموع التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية .

٤ – مدرسة الرها : انتقل التعليم إلى هذه المدرسة من مدرسة نصيبين . وفي سنة ٤٨٩ م أغلقت مدرسة الرها لأن معلميها كانوا نسطوريين في آرائهم ، وفتحت ثانية في نصيبين ، وقد نالت تأييد الساسانيين إذ ذاك ، فنشرت العقائد النسطورية والمعارف اليونانية في بلاد فارس . كان ما يعلم في تلك المدارس ذا صبغة دينية ، غير أن الأطباء وطلاب الطب كانوا يشتركون فيه . ويمكن اعتبار مدرسة الرها مصدرا جديدا من مصادر الثقافة اليونانية تمكن العرب بواسطتها من معرفة العلوم الإغريقية التي كانت من دعائم نهضتهم العلمية .

٥ – مدرسة جند يسابور : أسسها كسرى أنوشروان (٥٣١ – ٥٧٨ م) في مدينة جند يسابور ، وكان كسرى ((على الرغم من حربه للروم معجبا بالثقافة الإغريقية الرومية فأكرم الفلاسفة الذين طردوا على أثر إغلاق مدرسة أثنا أيام جستنيان ، وأنشأ مدرسة جند يسابور على نهج مدرسة الإسكندرية وقد جرى التدريس بالسريانية كما كان الحال في نصيبين .

وأصبحت مدرسة جند يسابور معهدا للدراسات الفلسفية والطبية ، وشمل كسرى في تسامحه كلا من النسطوريين واليعقوبيين ، وصار النصارى السريان أطباء ، فنالوا الحظوة التي نالوها في قصور الخلفاء فيما بعد .

لقد جعل كسرى هذه المدينة من أكثر المراكز العقليةِ أهمية في ذلك

الوقت وقد كان هنا العلماء اليونان الذين تركوا أثينا ليقابلوا الحكماء السريان والفرس واليهود . وهكذا قام علم التوفيق بين الآراء والمذاهب المتناقضة الذي أصبح فيما بعد أكثر أهمية لتقدم الفكر الإسلامي)) .

((وفي هذه المدرسة لم يكن الطب يدرس اعتمادا على تراجم سيرجيوس لكتب جالينوس في غالب الظن – نظريا فحسب – بل كان يدرس عمليا في بيمارستان كبير ، كان نموذجاً لما كانت عليه الدراسة من بعد في العالم الإسلامي))[٨].

وكان لهذه المدرسة الأثر المباشر في ازدهار حركة الترجمة ومنذ القرن الثاني للهجرة ، عندما بدأ أول اتصال مباشر معها زمن الخليفة العباسي المنصور وذلك عندما أحضر الأخير رئيس أطباء جند يسابور ، جورجيوس بن بختيشوع إلى بغداد لمعالجته من مرض ألم به .

ومن ثم تطورت العلاقة بين هذه المدرسة وخلفاء بني العباس ولاسيما زمن الخليفتين المنصور والرشيد ، وكانت العلاقة الطبية تحتل المرتبة الأولى في أهمية هذه المدرسة في هذا العصر ، فضلا عن كونها مركزا هاما من مراكز الترجمة وإحدى المسالك التي انتقلت من خلالها الحضارة الإغريقية إلى العرب وإنها كانت علامة مضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية .

---

[٨] مايرهوف ، ماكس : من الاسكندرية الى بغداد ، فصل في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، للدكتور عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٠ ، ص ٥٦ .

وختاما نقول إن أثر مكتبة الإسكندرية في الحضارة العربية الإسلامية على المستوى المعرفي قد ظهر واضحاً في التشكيل العام لحضارة العرب والمسلمين ، على أنحاء عدة :

ففي مجال العلم ، حفظت مكتبة الإسكندرية مؤلفات العلماء اليونانيين وحافظت على استمرار البحث العلمي خلال نخبة ممتازة من علماء الإسكندرية في حقول الطب والفلك والهندسة واللغويات ، حتى جاء أوان الإسهام العربي الإسلامي في هذه الحقول المعرفية .

ففي مجال الطب ، على سبيل المثال كان الأثر واضحا في أمرين :

الأمر الأول : انتقال مجالس التعليم الطبي من الإسكندرية إلى بغداد ، عبر قرون طويلة استقر خلالها منهج البحث الطبي عند الأطباء العرب والمسلمين على النحو الذي رسمته الإسكندرية من قبل . وقد تتبع المستشرق ماكس مايرهوف انتقال هذا التعليم الطبي ، فكشف خلال دراسته المستفيضة (من الإسكندرية إلى بغداد) عن التواصل العلمي بين الإسكندرية والحضارة الإسلامية في هذا المجال .

الأمر الثاني : عمق الأثر السكندري في تاريخ الطب العربي الإسلامي ، من خلال تلك المؤلفات الأبقراطية وهي مؤلفات أبقراط التي لم يكن المسلمون

يسمحون للطبيب بممارسته مهنته قبل دراستها ، وإلى جانبها كانت مؤلفات جالينوس التي تعرف باسم منتخبات الإسكندرانيين وهي التي كانت تلي مجموعة أبقراط في الأهمية ... ولولا مكتبة الإسكندرية ، وكبار أطبائها ، ما كان من الممكن أن يستمر علم الطب قديماً باستلام العرب والمسلمين الراية اليونانية من الإسكندرية)) [٩].

---

[٩] من الانترنيت : موقع يوسف زيدان ـــ ٢٠٠٣ .

سوء الحال والفقر في شعر العصر العباسي

الدكتورة سوسن صائب المعاضيدي
قسم اللغة العربية / كلية التربية / ابن رشد

الملخص :
يتعرض البحث لظاهرة كانت في العصر العباسي وهي سوء الحال وما يتصل بالناس من أمور اقتصادية واجتماعية . وقد اتضحت هذه الظاهرة في الشعر الذي وصف به الشعراء تلك الأحوال .

أن الحالة الاقتصادية المترفة والبذخ والعطاء الذي عمَّ المجتمع العباسي في هذا العصر ، وما رافق ذلك من رخاء مادي واضح في كثير من مرافق الحياة الاجتماعية ، كل هذا الترف الذي ذكرته كتب الأدب والتاريخ ، والذي أشتهر به كثير من رجالات الدولة العباسية والحاشية ، في الوقت الذي يعاني منه فقراء المجتمع والطبقة البائسة حالة من البؤس والحرمان والعوز المادي ، كل ذلك كان مدعاة لبيان هذه المشكلة وصداها لدى شعراء الدولة العباسية في هذا العصر .

فقد أسهب مؤرخو الأدب العباسي في بيان الحالة الاجتماعية المترفة التي كان عليها العصر العباسي ، إذ أشار المؤرخون إلى أنّ : ((خزائن الدولة هي المعين الغدق الذي هيأ لكل هذا الترف ، فقد كانت تحمل أليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض))[١] ، وأشاروا إلى أن كل هذه

---

[١] العصر العباسي الاول ، الدكتور. شوقي ضيف ، ص ٤٥.

الأموال كانت تجري لحساب الخلفاء والوزراء والقواد والشعراء والمغنين[٢].
ومن الطبيعي القول بأن الترف الذي عمّ أرجاء الحياة المختلفة للوزراء والخلفاء والقواد وكبار رجال الدولة كان على حساب الطبقة العامة المحرومة ، فجمهور الناس يعيش على الضنك وشظف العيش ويعاني الحرمان[٣].

فقد ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى القول : ((ومن المؤكد أن الطبقات البائسة في العصر ، كانت أكثر طبقاته عددا ، وكانت تكدح وتشقى وتتصبب عرقا لينعم الخلفاء والوزراء وعلية القوم وكبار التجار والأقطاعيون بالحياة الرغدة والعيش الناعم غير مفكرين في جوع جائع ، ولا في عري عارٍ ، بينما تتجرع الطبقات الفقيرة آلاما ثقالا ، وأهوالا طوالا ، وكأنما عميت الأبصار وصمّتَ الأسماع))[٤] .

لذا وبناء على ما تقدم تجدرُ بنا ملاحظة أن : ((مشكلة الفقر أو مأساته مصدر الهام لبعض الشعراء الذين يعيشون فيها ، ويعانون منها))[٥] .

وهذه العبارة تستدعي الوقوف عندها ، والنظر فيها مرة بعد مرة ، أذ نجد شعراء عانوا من الفقر والعوز وسوء الحال وأكثروا من تصوير ذلك في أشعارهم .

وقد أشار الدكتور حسين عطوان إلى محنة هؤلاء الشعراء مؤكدا أنهم

---

[٢] ينظر العصر العباسي الاول ، ص٤٥.

[٣] ينظر العصر العباسي الاول ، ص ٥١.

[٤] الشعر وطوابعه الشعبية ، ص ٨٨.

[٥] اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري ، الدكتور محمد مصطفى هدارة .

(اعتمدوا النقد اللاذع والتشهير والتعريض والهجاء المقذع لاكـــراه الوزراء والعمال والتجار والشعراء الميسورين على أجراء الصلات القليلة عليهم حتى يكفلوا الحياة لأنفسهم ولأولادهم)[٦].

فهذا ((أبو الشمقمق))[٧] (ت ١٨٠هـــ) يعد غيــر منـــازع أكثـــر الشعراء تصويرا للفقر ، وهو يبين سوء حالته الأجتماعية ذاكرا أن لا بيت له إذ منزله الفضاء وسقف بيته السماء قائلا :

برزْتُ من المنازل والقبابِ　　　فلم يعسر على أحـــد مجـــابي

فمنزلي الفضاء وسقف بيتي　　　سمـــاءُ الله أو قطع السحاب[٨]

فأذا أراد ضيفه دخول بيته فأنه يدخل ويـــسلم عليه على الفور، إذ لا بـــاب عنده وليس لديه مصراع لذلك الباب :

فأنت إذا أردت دخلـــتَ بيتـــي　　　عليَّ مسلما مـــن غيـــر بـــابِ

لأني لم أجـــدْ مـــصراع بـــابِ　　　يكون من السحاب إلى التـــرابِ

ولا أنشق الثرى عن عود تختٍ　　　اؤمـــل أن أشارَ بـــه ببابنـــي

وهو لا يخشى هروب عبيدة او خروجهم عن طاعته ولا يخاف هلاك دوابه لأنه لا عبيدة له ولا دواب :

ولا خفت الاباق علـــى عبيدي　　　ولا خفتُ الهلاك علـــى دوابي

---

[٦] الشعراء الصعاليك . الدكتور حسين عطوان ، ص٩٣.

[٧] هو مروان بن محمد شاعر هجاء من اهل البصرة خراساني الأصل ، ينظر : تـــاريخ بغداد ١٣/ ١٤٦.

[٨] شعراء عباسيون ، ق٢ ، ص ١٣١ .

ولا حاسبت يوما قهرمـــاني محاسبة فاغلظ فـــي حـــسابي

وفي ذا راحة وفـــراغُ بالٍ فدأب الدهر ذا أبـــدا ودأبـــي

وقد خاطب أبو الشمقمق المنصور سائلا وصله وعطاءه بقصيـــدة ذكرها ابن المعتز في (طبقات الشعراء) مدح في أثنائها المنصور قائلا :

يـــا أيهـــا الملـــك الـــذي جمـــع الجلالـــة والوقـــاره

ورث المكـــــارم صـــــالحا والجـــودَ منـــه والعمـــارة

أنـــي رأيتـــك فـــي المنـــا مِ وعـــدتني منـــك الزيـــارة

فغـــدوت نحـــوك قاصـــدا وعليك تصديـــق العبـــارة[٩]

ثم مضى في قصيدته شاكيا حاله وحال عياله الذين أعيـــاهم الفقـــر ، وهم لا يملكون شيئا من طعام أو شراب قائلا :

إن العيـــــال تـــــركتهم بالمـــصر خبـــزهم العـــصارة

وشرابُهمُ بـــولُ الحمـــارِ مزاجـــه بـــول الجمـــارَه

ولقد أشار الدكتور محمد مصطفى هدارة إلى أن هذا النوع من الشعر يعد شعرا ذاتيا ، وسبب تسميته بالشعر الذاتي في رأيي أنه يصور بحق معاناة الشاعر النفسية وما يشعر به من أذى وحرمان وأنه يعبرّ عن تجربة خاصـــة ومعاناة شخصية فمن ذلك أن أبا الشمقمق يرجع حالته البائسة وما هو فيه من فقر إلى سوء حظه ، إذ يرى أنه لو ركب البحر لانقلب ذلك البحر صـــحراء قاحلة ، ولو وضـــع في يده جوهرة ثميـــنة لعادت زجاجا رخيصا ليس بذي قيمة قائلا :

---

[٩] طبقات الشعراء ، ص ١٢٧ .

قيمة قائلا :

لو ركبْتُ البحارَ صارت فجاجا لا تــرى فــي متونهـــا امواجـــا
فلو أني وضعت ياقوتة حمـــــ راءَ في راحتي لصارت زجاجا [١٠]

ويبلغ الأسى به ذروته في قوله : إنه لو وردَ مياها عذبة لعادت ملحا اجاجا في قوله :

ولو اني وردت عــذبا فراتـــا عادَ لا شكَّ فيـــه ملحـــا أجاجـــا
فالى الله اشتكي وإلى الفضلـــــ ـلِ فقد أصبحـت بزاتــي دجاجا

وفي نص آخر يستمر بالشكوى ذاكرا خلوّ بيته من الخبــز واللحــم والشراب وقد جاءهم العيد وليس عندهم تمر ولا خبز مبينا ان دهــرهم قــد عاداهم عداوة الصقر للوزّ قائلا :

مـــا جمـــع النـــاس لـــدنياهم أنفـــعُ فـــي البيـــت مـــن الخبـــز
والخبـــزُ واللحـــمُ إذا نلتـــه فانـــت فـــي أمـــنٍ مـــن التـَّــرزِ
والقلزُ مـــن بعـــدُ علـــى اثـــره فأنمـــا اللـــذاتُ فـــي القلـــزِ
وقـــد دنـــا الفطـــرُ وصـــبياننا ليـــسوا بـــذي تَمـــر ولا أرزِ
وذاك أن الدهـــــــر عاداهـــم عـــداوة الشاهيـــن للـــوزِّ [١١]

فهم إذا ما رأوا خبزا على مكان عال أسرعوا اليه يقفزون ولكنهم لا يطيقون القفَز لأنهم جائعون :

---

[١٠] شعراء عباسيون ، ق٥ ، ص ١٣٢ .

[١١] طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ١٢٧ .

ولم يكن تصوير سوء الحظ مقصورا على أبي الشمقمق فقد شاركه فيه شعراء بائسون لا يقلون عنه شأنا في تصوير سوء حظهم وفقرهم مثل أبي فرعون الساسي ، فقد ذكر ابن المعتز في طبقات الشعراء ((أتى أبو فرعون الساسي أبا كهمس التاجر ، فسأله ، فأعطاه رغيفا من الخبز الحواريّ كبيرا فصار الى حلقة بني عديّ ، فوقف عليهم وهم مجتمعون ، فأخرج الرغيف من جرابه ، والقاه في وسط المجلس ، وقال يابني عدي ، أستفلحوا هذا الرغيف ، فأنه أنبل نتاج على وجه الأرض ، قالوا : وما ذاك ؟ فاخبرهم فاجتمعوا إلى أبي كهمس التاجر ، فقالوا : عرّضتنا لأبي فرعون وقد مزّقنا كل ممزق))[13] . وأشار ابن المعتز إلى شاعرته وأجادته بقوله : ((ومما يستملح له ـ وكان من أفصحهم وأجودهم شعرا - وأكثرهم نادرة))[14]، وأستدرك على ذكره بالقول : ((ولكنه لا يصبر عن الكدية))[15]، وقد ذكر له أبياتا شعرية تصور شكواه من حظه فمن ذلك قوله :

رأيت في النوم (بختي)	في زيّ شيخٍ أرتٍ
أعمى أصمَّ ضئيلا	أبا بنين وبنت
فقلت : حييت رزقي	فقال : رزقك ...
فكيف لي بدواءٍ	يلين لي بطن بختي ؟ [16]

---

[13] طبقات الشعراء ، ص٣٧٦.

[14] المصدر نفسه .

[15] المصدر نفسه .

[16] المصدر نفسه .

وفي الاتجاه ذاته يشير أبو فرعون الساسي إلى سوء حالة شاكيا الفاقة والحرمان ، مبينا أن الله عزل وجل يعلم ما وصل اليه حالـــة ، إذ لاشـــيء عـــنده ، فهو مهزول ضعيف البنية حتى أن الشمس قد محت خياله ، وهـــو مفلس حتى حل أكله لعياله قائلا لا:

أنـــا فـــي حـــالٍ تعـــالى اللهُ	ربـــــــي ايَّ حـــــــالِ
ليس لـــي شـــيءٌ إذا قيـــــــ	لَ لمـــن ذا ؟ قلـــت : ذا لـــي
ولقـــــد اهزلـــــتُ حتـــــى	محـــــت الـــــشمس خيـــالي
ولقـــــد أفلـــــستُ حتـــــى	حـــــلَّ أكلـــــي لعيـــالي
مـــنْ رأى شـــيئا محـــالا	فأنـــــا عـــــينُ المحـــــالِ
فـــي حـــريم الله طـــرّا	مـــن نـــساءٍ ورجـــالِ
لو أرى في الـــناس حـــرّا	لم أكـــن في ذا المثـــالِ [١٧]

وقارئ الأبيات المذكورة في آنفا يستشعر قدرة هذا الشاعر وقابليتـــه ومهارته في تحسيد الحالة التي وصل اليها وتصويرها ، والبيت الثالث يؤكـــد مقدرته الشعرية إذ دللّ على هزاله حتى أن الشمس قد محت خياله وفـــي ذاك مبالغة واضحة .

((وكان البؤس ـــ على ما يبدو ـــ ينهك حياته ويكلفه هو وأسرته مـــن الجوع والعري في ليالي الشتاء الباردة ، فلا يستطيعون احتماله ولا منقذ ولا معين ، وله يصور ذلك تصويرا دقيقا))[١٨] ، وفي ذاك يقول :

وصبيةٍ مثـــل صـــغارِ الـــذرِّ	جـــاءَهم البـــرد وهـــم بـــشرٍّ

---

[١٧] شعراء عباسيون ، ق٤٥ ، ص ١٤٩ .

[١٨] الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، الدكتور. شوقي ضيف ، ص٨٨ .

بغيـــر قمـــصٍ وبغيـــر أزرِ ... تـــراهم بعـــد صـــلاةِ العـــصرِ

حتـــى إذا لاحَ عمـــود الفجـــرِ ... وجاءني الصوت غدوتُ أســـري

وبعضهم ملتـــصق بـــصدري ... وبعـــضهم منحجـــرٌ بحجـــري

أسبقهمُ الـــى أصـــوْلِ الجُـــذرِ ... هـــذا جميـــعُ قـــصتي وأمـــري

فارحمْ عيـــالي وتـــولَ أمري ... كنيت نفســـــي كنية بشعـــــري

انا أبو الفقر وأم الفقر [19]

وقد وصف الدكتور شوقي ضيف القطة الآنفة بانها : (بديعـــة فـــي تصوير بؤس أبي فرعون وبؤس عياله ، فهم عراة في زمهرير الشتاء وهـــم يلتصقون بصدر أبيهم وظهره وحجره يطلبون الدفـء ، ويطلبـون ويعللهـــم بالصباح ، حتى إذا لاح فرج على وجه لا يليو ، راجيا أن ييـــسّر لـــه مـــا يستطـــيع أن يردَّ به عنهم شيئا من الجوع والعـــري ، وهـــم فـــي الحجـــرة متكومون بجانب جدرانها ، وكأنهم خنافس متكومة في جُحر فياللهول ، يااللفقر وياللبؤس)[20] .

وتعبير أبي فرعون عن نفسه بأنه أبو الفقر وأم الفقر لهو خير دليل على ما وصلت اليه حال هذا الشاعر من شدة البؤس والفاقة .

وفي قصيدة أثنى على حسنها وفصاحتها ابن المعتز يمتدح أبـــو فرعـــون الحسن بن سهيل ويشكو حاله مبينا فقره قائلا :

أشـــكو اليـــك صـــبية وامَّهـــم ... لا يـــشبعون وأبـــوهم مـــثلهم

قد أكلوا اللحـــمَ ولـــم يُـــشبُعُهم ... وشربوا الماءَ فطـــال شـــربهم

---

(19) طبقات الشعراء ، ص٣٧٧.

(20) الشعر وطوابعه ، ص٨٩.

وأمتذقوا المذقَ فما اغنـــــاهمُ   والمضغ أن نالوه فهـــو عرسهم

فهؤلاء الصبية لا يعرفون من الخبز إلاّ أسمه ، وليس عندهم تمر ، أما الفاكهة فلم يتمكنوا من رؤيتها في السوق وهم في حال مزرية من سـوء التغذية قائلا في ذلك :

لا يعرفون الخبز إلا باســمه   والتمر هيهات فلـيس عنـدهم

وما رأوا فاكهة فـــي ســوقها   وما رأوها وهي تنحو نحـوهم

زعرُ الرؤوس قرعت هاماتهم   من البلا وأستكَّ فهـم سـمعهم

كأنهم جنـــان ارضٍ مجـدبٍ   محل فلو يعطون أوجى سهمهم

بل لو تـراهم لعلمـت أنَّهـم   قـوم قليـلٌ ريَّهـم وشـبعهم

وجحشهم أجرب منقور القرى   ومثل أعواد الشكاعي كلبهم [٢١]

على أن أبرز ما يشكو منه الشعراء البائسون الفقراء هو هرب الفـأر والذبان والسنور من بيوتهم لخلّوها مما يمكن أن تقتات عليه من طعام ونحوه وقد ذكر ذلك أبو الشمقمق قائلا :

ولقد قلت حين أقفـر بيتـي   من جراب الـدقيق والفخـاره

ولقد كان آهــلا غيـر قفـر   مخصبًا خيرُه كثيـر العمـاره

فأرى الفأر قد تجنبن بيتـي   عائذاتٍ منه بـدار الامـاره[٢٢]

ودعا بالرحيل ذبـان بيتـي   بين مقـصوصة الـى طيـاره

وأقام السنور في البيت حولا   ما يرى في جوانب البيت فـارَه

ينفض الرأس منه من شدّة الجو   عِ وعيشٍ فيـه أذى ومـــراره

---

[٢١] طبقات الشعراء ، ص ٣٧٨ .

[٢٢] شعراء عباسيون ، ق٢٣ ، ص ١٣٨ .

ويعقد أبو الشمقمق حوارا لطيفا بينه وبين السنور داعيا إياه إلى الصبر إلا أن ذلك السنور يجيبه بعدم قدرته على الصبر في بيت مقفر من الأكل ثم يعود ابو الشمقمق ليسمح له بالخروج إلى حيث المكان المخصب المملوء قوتا قائلا :

قلت لما رأيته ناكس الرأ	س كئيبا وفي الجوف منه حراره
ويك صبرا فانت خير من سنو	رٍ رأته عيناني قطُّ بحاره
قال :لا صَبر لي وكيف مقامي	وسط بيتٍ كمثل جوف الحمارَه
قلت : سرْ راشدا الى بيت خانٍ	مخصب رحله كثير التجاره
وإذا العكنبوت تغزّل في دنّي	وحبي الكوز والفرقاره
وأُصاب الحُجام كلبي فأمسى	بين كلب وكلبةٍ عياره[٢٣]

ومطية أبي الشمقمق هي رجلاه متمنيا أن تكون له مطية يوما ما:

أتراني أرى من الدهر يوما	لي فيه مطية غيرُ رجلي
كلما كنت في جميع فقالوا	قربوا للرحيل قربتُ نعلي
حيثما كنت لا أخلف رحلا من	رآني فقد رآني ورحلي[٢٤]

ويوازن العماني[٢٥] الراجز بين عربي بالي الأطمار رثَ الثياب جائع البطن وشخص مترف ، يمتلك مالا وله من القيان والعبيد والجواري الشيء

---

[٢٣] المصدر نفسه .

[٢٤] شعراء عباسيون ، ق ٣٧ ، ص ١٤٥ .

[٢٥] هو محمد بن ذؤيب بن محمد بن قدامه الحنظلي الدارميّ راجز من بني تميم . ينظر : الأعلام للزركلي .

الكثير، والعمانيّ الراجز في عقده هذه الموازنة يشرح سوء حالة العربي وفقره راسما بذلك صورة شعرية بديعة إذ يقول :

لا يستوي منعّمٌ بندارُ   له قيانٌ وله حِمارُ
مقصّصٌ قَصّه البيطارُ   يطيف في السوق به التجارُ
وعربيٌ بردُهُ أطمارُ   يظلُّ في الطرق له عِثارُ[٢٦]
قد نصلت من رجلهِ الاظفارُ   يأوي إلى حصنٍ له أوارُ
أحدبُ قد مالَ به الجدارُ   لا درهمٌ فيه ولا دينارُ
ياكل هزلي الفار فيه الغارُ   في بلدة عالٍ بها الغبارُ

ويصف العمانيّ الراجز أهل هذه البلدة وما فيها من ترف ونعمة قائلا في ذلك:

ليس على كهل بها وقارُ   مثل الشياطين إذا أستشاروا
لهم دنانٌ ولهم جرارُ   وفاشفارات لها قُتارُ
في اليسرِ لا يطع فيه الجارُ

الدراسة الفنية

كانت أولى الإشارات التاريخية لمفهوم الصورة هي ما وجدناه عند الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في تعريفه للشعر بأنه : ((صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير)) ، ولقد توضح مفهوم الصورة فيما بعد على أيدي النقاد المحدثين، وأخذ يرتبط أرتباطا وثيقا بحالة الشاعر النفسية ، لذا كان أكثر تعريفات الصورة الشعرية وضوحا هي ما قيل بأنه:

---

[٢٦] طبقات الشعراء ، ص ١١٣ .

(رسم قوامه الكلمات) ، وبناء على ذلك فالصورة بنائيا تتألف من العواطف والخيال فضلا عن قدرة الشاعر على سبك تلك الصورة واخراجها أخراجا فنيا جيدا باستخدام اللفظ المعبّر المنتقى بعناية فائقة إلى جانب المعنى المؤثر .

فقد عني أبو الشمقمق برسم صورة لسوء حظه في ذكره أنه لو ركب البحار صارت صحراء قاحلة في قوله :

لو ركبت البحارَ صارت فجاجا لا ترى في متونها أمواجا

وكذا أحسن في تصوير حظه بأنه شيخ أرت لا يسمع ولا يرى ضئيل الجسم مثقل بأعباء الحياة من بنين وبنات حتى إذا عرّفنا به صنع حوارا مفترضا وأن أستعمل كلمات تتقزز منها النفس ، إلا أنه أستطاع رسم صورة فنية جميلة في قوله :

رأيت في النوم بختي في زيّ شيخٍ أرتّ
أعمى اصمَّ ضئيلا أبا بنين وبنت
فقلت : حييت رزقي فقال : رزقك ...[٢٧]

على أن أبا فرعون الساسي يرسم لنا صورة هزلية قد أحسن في تصويرها ، فصغاره صغار الذرّ وليس لهم ما يتقون به من شرّ برد الشتاء وهم لا يملكون ما يلبسونه وتراهم ملتصقين بصدر أبيهم وبعضهم جالس في حجره ، وتلك صورة لو صورها رسام ما أستطاع أن يبدع في تصويرها كما تمكن الساسي في قوله :

---

[٢٧] طبقات الشعراء ، ص ٣٧٦ .

وصبيةٍ مثل صــغارِ الــذرّ | جــاءَهم البــرد وهــم بــشرٌ
بغير قمــيصٍ وبغيــر أزرِ | تــراهم بعــد صــلاة الفجــرِ
حتى إذا لاحَ عمود الفجــر | وجاءني الصوت غدوتُ أسري
وبعضهم ملتصق بصــدري | وبعضهم منحجــر بحجري[28]

ويعقد أبو الشمقمق حوار آخر مع السّنور داعيا إيــاه إلــى الــصبر والمكوث في بيته حتى إذا أعياه أقناع السنور بالمكوث فسمح له بالسير حيث المكان المخصب بالأكل قائلا:

قلت لما رأيتــه نــاكس الــرأ | س كئيبا وفي الجوف منه حراره
ويك صبرا فانت خير مــن ســنو | رِ رأتــه عينــاني قــطّ بحــاره
قال :لا صبر لي وكيف مقامي | وسط بيتٍ كمثل جوف الحمــارَه
قلت : سِر راشدا الى بيــت خانٍ | مخصب رحله كثيــر التجاره[29]

ويمكن ملاحظة أن هؤلاء الشعراء أكثروا مــن أســتعمال أســلوب التكرار طريقا لبيان سوء حالهم ، وفي هذا تأكيدا واضح لما هم فيه من سوء الحال فابو الشمقمق يكثر من تكرار (لا) في قوله :

ولا أنشقّ الثرى عن عود لخت | اؤمــــل أن أشــــاربه ببــــابي
ولا خفت الآباق على عبيــدي | ولا خفت الهلاك على دوابــي
ولا حاسبت يومــــا قهرماني | محاسبة فاغــلط في حسابي[30]

---

[28] طبقات الشعراء ، ص ٣٧٧ .

[29] اخبار الشعراء المحدثين ، ق ٢٣ ، ص ١٣٨ .

[30] أخبار الشعراء المحدثين ، ق٢ ، ص ١٣١ .

وكذا في أستعماله (لو) وتكراره هذا الحرف قائلا :

لو ركبْتُ البحارَ صارت فجاجا لا ترى في متونها أمواجـــــا
فلو أني وضعت ياقوتة حمـــ راءَ في راحتي لصارت زجاجـا
ولو أني وردت عَذْبـــا فراتا عادَ لا شكَّ فيه ملحـا أجاجا[٣١]

ويمكن ملاحظة أن الخيال أدى دورا مهما في جعل الصورة الفنيـة أكثر أشراقا وتألقا وأبداعا في تصوير سوء الحال في هذه الحقبة الزمنية فمن ذاك تصوير أبي الشمقمق وحواره مع حظه وخيال أبي فرعون الذي صـوّر صغاره بصغار الذرّ وما ينطوي عليه هذا التصوير من دقة وقـدرة فنيـة ، وكذا حوار أبي الشمقمق مع السنّور ودعوة هذا السنور إلى الصبر وأجابتـه بانه غير قادر على الصبر والبقاء في بيت مقفر من الأكل ، كل هـذا يـدلل دلالة أكيدة على مقدرة هؤلاء الشعراء في التنفيس عن مشاعرهم الذاتية .

من خلال الأمثلة المذكورة يتبين أن الشعراء المـذكورينْ أعتمـدوا أسلوب السخرية والفكاهة للتعبير عن فقرهم وهذه ظاهرة تستحق الالتفـات ، إلا لا شكوى مرة ولا بؤس،. زيادة على أن هؤلاء الشعراء لـم يتعرضـوا لقضية الظلم الأجتماعي وسوء توزيع الثروات . وأن أشعارهم من النوع الذي يمكن أن يوصف بالأدب الجماهيري (الشعبي) الذي يعبـرّ عـن قـضايا المجتمع وهمومه .

---

[٣١] اخبار الشعراء المحدثين ، ق٥ ، ص ١٣٢ .

المصـــادر :

١. الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، ١٩٩٩ .

٢. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ط / دار الثقافة، بيروت ، ١٩٥٥ .

٣. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، الـــدكتور محمـــد مصطفى هداره ، ط / دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ .

٤. شعراء عباسيون ، مطيع بن اياس ، سلم الخاسر ، أبـــو الـــشمقمق ، غوستاف فون غرونياوم ، تحقيق محمد يوســـف نجـــم ، ط / دار الحـــياة ، بيروت ، ١٩٥٩ .

٥. تاريخ الأدب العربي ، العصر العباســـي الأول ، الـــدكتور شـــوقي ضيف ، ط / جار المعارف ، مصر ، د. ت .

٦. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) ، ط / دار الفكر للطباعة والنشر د. ت .

٧. الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور ، الدكتور شوقي ضيف ، ط / دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٧ .

٨. الشعراء الصعاليك ، الدكتور حسن عطـوان ، ط / دار الطليعـة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٩. طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، تحقيقـ عبد الستار احمـد فـرّاج ، ط / دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٦ .

١٠. الورقة لأبي عبد الله محمد الجراح ، تحقيقـ ، الدكتور عبد الوهاب عزام ، وعبد الستار احمد فراج ، ط / دار المعارف ، مصر د. ت .